حورية من جهنم

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

❖ **الكتاب: حورية من جهنم**

❖ **المؤلف: منى سيد ابراهيم(منى أبو القاسم)**

❖ **نوع العمل: رواية**

❖ **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**

❖ **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

❖ **رقم الإيداع : 2019 / 23751**

❖ **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754- 73-7**

❖ الغلاف: ببلومانيا

❖ تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا

❖ المدير العام: جمال سليمان

❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة

عنوان (2): 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة

❖ تليفاكس: 0020226061014

❖ محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

❖ الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

حورية من جهنم

رواية

منى أبو القاسم

www.bbibliomania.com

2019

إهداء

إلى أخي وأبي وسندي وأغلى ما في القلب من آمن ووثق بي ودعمني
فكان دائماً نبراساً ملهماً لعقلي وسراجاً هادياً لفؤادي
أخي الأكبر والأغلى / كرم سيد ابراهيم
إلى حبيبي ورفيق دربي وشرياني النابض من أمن بي ودفعني دفعاً
لأكون ها هنا اليوم
زوجي ورفيق الروح / وائل عزت

*****

مقدمة

إلى من يهمه أمري ....

أنا امرأة غرقت بالحب، سحبتها أمواج العشق العاتية لأعمق حدود الغرام

فخدعها الموج العاشق كذباً وغدراً، وتركها تتجرع آلام الفقد وطعنات الخيانة.

من تذوق حبي فلن ينساه، سيظل شهداً عالقةٌ حلاوته بقلبه..

ومن تذوق كيدي فلن ينساه أيضاً، سأحرقه بناري ثم ألقي به في أعماق جهنم.

ولا تنسى أبداً أنك أنت من زرع بذور الحب ومن زرع بذور الكيد ..

فلا يفاجئك الحصاد...

*****

كيد النساء

اعترف زوجي لي اليوم أنه على علاقة بامرأة أخرى، وبأنه ينوي الزواج منها، وخيرني ما بين الاستمرار معه بعد زواجه أو الانفصال عنه، وعندما سألته بقهر :ماذا فعلت أنا لأستحق منك ذلك؟؟

قال لي ساخراً:انظري لنفسك كيف أصبح مظهرك، ازداد وزنك ولم تعودي تهتمين بنفسك صرتي..تشبهين ربات المنزل البائسات، أنا الآن مديرالشركة من كبرى الشركات، وأنتِ لم تعودي تليقي بي..فأنا أريد امرأة جميلة، أنيقة، تكون واجهة لي أمام المجتمع....

ابتسمت بسخرية من بين دموعي شريط الماضي يعود بي لأكثر من عشر سنوات مضت.. عندما كنت أنا تلك المرأة الجميلة الأنيقة التي تسطع مثل الشمس فتلتفت لها كل الأنظار. الذكية المتميزة والتي كان يتوقع لها الجميع مستقبل عملي باهر، عندما كان هو موظفاً، مبتدئاً يستشيرها في كافة أمور العمل ليكتسب بعضاً من خبراتها قبل أن يتقرب منها تدريجياً، ويغزل حولها خيوط العشق العنكبوتية، لتدخل بإراداتها سجن حبه ومعتقل الزوجية، لتكتشف كم هو أناني لا يهوي سوى نفسه، ولا يسعي سوي لذاته فقط، ولم يعد بيدها حيلة حينها، فقد أحبته، وقد كان ما كان حينما طلب منها أن تترك عملها رغم كل نجاحاتها حتى تتفرغ له وحده، فهو لا يريدها أن تنشغل بأ حد سواه، رضخت لطلبه بصدر رحب، فعلى كل الأحوال هي لم يعد يهمها شيء غيره، وأقنعت نفسها بأن نجاحه هو نجاحها، واستغل هو هذا الشيء أسوأ استغلال، وجهت كل خبراتها وذكائها في مساعدته لتحقيق ما يصبو إليه.. أملت عليه كل الطرق السحرية للتقرب من مدرائه، سهرت الليالي تعمل على المشاريع والتقارير التي سيقدمها لمجلس الإدارة..ليبهر الجميع وينال إعجابهم، ويصير رمزاً للتميز فيتدرج في المناصب سريعاً بفضل جهودها ..

كانت تهتم بالأبناء صباحاً، وطعامهم ظهراً، والمذاكرة لهم عصراً وعمله ليلاً لسنوات وسنوات..ولم تتذمر يوماً ..كانت تنزوي ليظهر، تتلاشى ليسطع، عندما أصبح مديراً للشركة كان أسعد يوم في حياتها، شعرت بأنها أخيراً حققت حلمها به، وتكلل تعبها بالنجاح أخيراً وآن لها أن ترتاح وتستمتع بحياتها معه ...وها هو عندما وصل إلى القمة تركها هي بالقاع، لينظر لها من الأعلى بازدراء، يقصيها من حياته ويستبدلها بأخرى، يدهس قلبها بقدميه ثم يذبح روحها بكلماتٍ مسنونة ...

مسحت دموعي بعنف ورفعت رأسي بكبرياء فأنا امرأة لم تُخلق لتبكي، بل تحملُ بداخلها قوة يعجز عن حملها ألف رجل، وتمتلك برأسها عقل امرأة ..وويلٍ للرجل إذا أخرجته المرأة من قلبها وأدخلته في رأسها...فالمرأة عندما تعشق تضع رجلها، تاج فوق رأسها وعندما تكره تلقي بالتاج أرضاً وتستمتع بتهشمه تحت قدميها...

قضيت الليل في التفكير العميق وبدأ العقل بالعمل بهمة ونشاط، وفي الصباح ارتديت أفضل ما عندي وتزينت وحضرت الفطور وفنجانين من القهوة، ثم ذهبت نحو زوجي مبتسمة على نظراته المستغربة ودعوته للفطور..

استمتعت كثيراً بتوتره وصدمته من ردة فعلي، بعدما تناولنا الفطور احتضنت يده وقلت له بابتسامة: أنا موافقة علي زواجك، فأنا لا أستطيع العيش دونك...

ابتسم بثقة وغرور، وابتسمت أيضاً بسخرية، محدثة نفسي :

نعم ابتسم.. فأنت لم ترى بعد كيد النساء...

بعد زواج زوجي بفترة، بدأ في استنزاف أموالنا المدخرة، فقد اشترى لعروسه بيت باسمها وسيارة وهدايا ليس لها أول من آخر .. حينها طلبت أيضاً منزلاً جديداً بحديقة واسعة ليلعب الأولاد بحرية، وسيارة لي ..وافق دون نقاش وكأنه يكافئني علي معاملتي التي لم يكن ليحلُم بها، أو ربما كان يعدل بيننا مثلاً؟ لا أعلم، المهم أنني استغليت هذه النقطة لصالحي...أحضرت خادمة ومربية

للأبناء ومدرسين خاصين في كافة المواد واشتركت لهم بأرقى النوادي من ناحية إهداراً لأمواله، ومن ناحيه أخرى اهتمام..بديل أنني لم أعد أهتم بهم كثيراً، فزوجي حاز على كل اهتمامي وتفكيري ومراقبتي أيضاً.. فقد أحضرت أحدث أجهزة للمراقبة في المنزل وأجهزة تنصت لكل مكالماته لأعرف عنه كل صغيرة قبل كبيرة ...

كنت أتدلل عليه كثيراً وأطلب منه الكثير من المال وكان يعطيني كل ما أريد ممتناً لعدم اكتراثي بزواجه الآخر، وأشير إليه كل حين باهتمامي بقطع مجوهرات باهظة الثمن كان يفاجئني ويحضرها لي، ومن المؤكد أنه يحضر للأخرى أضعافها، لم أهتم طالما أنا أحصل علي كل ما أريد ..استغليت هذه الأموال في الحصول علي دورات تدعيمية في إدارة الأعمال في مجال تخصصي.. وقمت بعمل أبحاثي ودراساتي بخصوص مشروع كنت أتوق إليه منذ زمن قبل أن أسقط ضحية للحب الواهي، وفائض الأموال كنت أدخرها لهذا المشروع، ومن خلال تنصتي على مكالماته اكتشفت أنه استهلك كل أموالنا في البنوك ولم يعد يملك أي شيء، وكنت أستغرب!! فهو لم يقصر في شيء ويعطيني كل ما أطلب وإن كان مبالغاً فيه، فكيف يستطيع توفير متطلبات زوجتان لا ترحمان، حينها علمت بأنها بداية نهايته ...حتى أتاني الجواب دون أي مجهود يذكر.. في آخر مكالمة استمعت له وهو يستجدي أحد زملائه في العمل على ألا يخبر أحد بأنه يتلاعب في أوراق وحسابات الشركة دون علم أحد ليختلس مبالغ ضخمة من أموال الشركة ويستحلفه بأنه سيسدد كل ما أخذه قريباً من خلال قرض ينتظر الموافقة عليه ...

لم أفعل شيئاً سوى مكالمة هاتفية صغيرة بغريمه على كرسي رئاسة مجلس الإدارة لأعطيه تلك المعلومة الصغيرة التي لا تقدر بثمن...

جلست في مكاني المفضل في الشرفة على كرسيٍ الهزاز أحتسي قهوتي الدافئة، أبتسم بانتصار وأنا أقرأ خبر القبض عليه مرفقاً بحروف اسمه الأولى ..أقصيت الجريدة جانباً كما أقصيته من حياتي ومن

قلبي من قبل، فلم يعد يهمني ما يحدث له في الحقيقة، فلدي أشياء تشغلني أهم منه بكثير .

ذهبت لموعدي مع موظف البنك الذي سيعطيني قرضاً لأمول مشروعي فما زلت أحتاج لبعض الأموال..فلن يكفي ما جمعته حتى الآن من بيع سيارتي، ومجوهراتي، ومدخراتي مؤخراً، وأيضاً بيع المنزل القديم ...

ألم أقل لكم إنني جعلته يوقع علي ورقتي تنازل عن البيتين القديم والجديد أثناء توقيعه لإحدى الأوراق المدرسية للأبناء، فأصبح المنزليين باسمي، واخترت بيع المنزل القديم لأنه يحمل ذكريات تصيبني بالغثيان...

بعدما انتهيت من المقابلة تفاجأت بإحدى أصدقاء والدي رحمه الله في البنك، حدثته عن مشروعي عندما سألني عن سر وجودي هناك وبأنني سأبدأ مشروعا صغيراً يتناسب مع رأس مالي ولكنه فاجأني بأنه سيدعمني وسيصبح شريكا لي، وبأننا سنبدأ المشروع بشكل موسع وضخم وبأنني أنا من سأكون مسؤولة نظراً لانشغاله ...لا أعلم كيف حدث كل شيء بسرعة خيالية، كل ما أعلمه أن اليوم هو أول يوم لي لاستلام مهامي كرئيسة لمجلس الإدارة .

ارتديت زي كلاسيكي أنيق يتناسب مع قوامي الممشوق، أسدلت شعري المصفف بعنايه وحذائي ذوالكعب الرفيع، نظرت لنفسي في المرأة بدوت مذهله متألقة ساطعة.

طلبت من السائق النزول من السيارة، فلدي موعد مع الماضي أود الذهاب إليه أولاً قبل المضي نحوالمستقبل.....

واضعة ساق فوق أخري لا تفارقني الابتسامة أنتظر رؤيته بلهفه، لبيت طلبه أخيراً بالقدوم عندما أردت أنا.. فهو لم يمل من الإرسال في طلبي ليحصل على دعمي ومساعدتي خاصة بعدما تخلت عنه زوجته الأخرى وهربت بالغنيمة ... لقد وكلت له محامياً للدفاع عنه من باب الشفقة ولا يحلم بأكثرمن ذلك، فتح الباب ودخل منه ....يا إلهي لم أصدق هيئته، يبدو مزرياً بشكل يثير اشمئزازي،

ينظر لي بعتب ثم بدهشة من هيئتي البراقة، ابتسمت قائلة : لا تنظر لي هكذا حتى لا تشتاق لي فقد جئت لأخبرك بأنني سأنفصل عنك.....

قال لي بقهر : ماذا فعلت أنا لأستحق منكِ ذلك....

قلت ساخرة: انظر لنفسك، لهيئتك .للمكان الذي تقيم به، لقد أصبحت تشبه المجرمين، أنا الآن مديرة لشركة كبرى، وأنت لم تعد تليق بي ..ولم تعد جديراً لتكون واجهةٌ لي أمام المجتمع، لا ترسل في طلبي مجدداً، لأن هذا هو اللقاء الأخير....

تركته ليعود لزنزانته الحديدية ودمرت أنا زنزانته العنكبوتية الواهية، دهست الماضي بكعب حذائي الرفيع، وتوجهت مندفعة نحو المستقبل....

ألم اقل لكم ويلٍ للرجل إن أخرجته المرأة من قلبها ووضعته في رأسها، فتلك دائماً ما تكون نهايته.....إنه كيد النساء يا سادة .....

*****

حورية من جهنم

أنا الآن نزيلاً بأحد مستشفيات الأمراض النفسية والعقلية، أقطن بها منذ شهور، بعدما أوقعني حظي العسر في امرأة تشبه الحوريات، لأكتشف لاحقاً أنها لم تكن سوى حورية من جهنم..

ادعى كريم ناجي، شاب في نهاية العشرينيات، أقيم منذ الصغر مع جدتي، والداي يعملان بالخارج، لا أعرف عنهم سوى أموالهم الغزيرة التي يغدقونني بها لتعويضي عن غيابهم ، اعتدت منذ نعومة أظافري الحصول على كل ما أريده، كانت هوايتي المفضلة هي الإيقاع بالفتيات، وساعدتني وسامتي كثيرا في ذلك.. ومع مرور الوقت أصبحت خبيرا بأمور النساء، فلا تحتاج منيّ أي فتاة كانت أو امرأة إلا بضع أحاديث فقط لتقع في شباكي، حتى أطلق عليّ أصدقائي لقب " الأستاذ".

منذ أن توفت جدتي وأنا أعيش بمفردي، وكان هذا في الواقع أفضل بكثير، فقد أصبحت الشقة فارغة، آتي فيها بمن أريد، في أي وقت أريد..

كنت أتنقل من عملٍ إلى آخر دون اكتراث، فلم يكن يعنيني العمل كثيرا..

كنت أعمل فقط إرضاءً لولدي حتى لا يغضب ويمتنع عن إرسال الإمدادات الشهرية، أما أنا فقد كان يكفيني أن أسبح في عالمي ما بين النساء والملاهي الليلية برفقة أصدقائي لأشاركهم نزواتي وسهراتي ومغامراتي غضب والدي كثيرا مني حين علم بتركي للعمل مما يقارب العام دون علمه وأعطاني إنذارا أخيراً، وبتوصية منه لأحد أصدقائه أحضر لي عمل بشركة كبرى.

بدأت العمل ولم يكن سيئ في الواقع، بل على العكس كان يروقني كثيرا، لم يستلزم مني أي مجهود بدني أو عقلي، لكن ما كان يروقني أكثر هن الجميلات المنتشرون في كل مكان، يحلقون حولي كالفراشات الملونة التي تنثر روعتها على من حولها، فلا ترغب الأنظار أن تحيد عنها من شدة حسنها.. وأنا وكما تعلمون عادتي دائماً ما تلاحقني لأي مكان أذهب إليه، وطبعاً ليس هناك أحب

إلى قلبي من هكذا مكان، والحقيقة من روعتهن كنت حائرا من أين أبدأ.. فكل واحدة منهن تمتلك جمالاً فريدا خاصا بها يميزها عن الأخرى، حسمت أمري..

وقررت التودد ل (ريان) فتاة جميلة رقيقة هادئة ذات قوامٍ ممشوق وابتسامة بريئة، تورطت معي منذ أول حديث دار بيننا عندما نظرت في عمق عينيها سلَمت كافة دروعها دون أي مقاومةٌ تذكر، لم يكن لدي أسهل من تلك الفتيات الخجولات البريئات، فالفتاة منهم تفقد وعيها من أول همسة عشق أرسلها بين الكلمات، كنت أستمتع بالحديث معها وبتلك الابتسامة البريئة التي تزين شفتيها الوردية، وأستمع لحكاياتها الغبية بالساعات دون كلل أو ملل، أشعر بها طفلة صغيرة تسرد لي تفاصيل يومها.. بالطبع أستطيع استغلالها وبكل سهولة، لكن لدي مبادئي الخاصة، فبالرغم من كل سيئاتي، إلا أنني لا أستغل الفتيات اللطيفات، أستمتع معهن فقط دون أن أفسد حياتهن..

ثم قادني حماسي بعد ذلك نحو (يارا)..

فتاة شقية منطلقة تعشق الحرية، الخروج، السهر والتمتع بالحياة، ووجدت عندي ضالتها..مدمنة تصوير، تعلمت فنون التصوير من أجلها كنا نلتقط عشرات الصور معاً، ذهبنا لكافة الأماكن، المقاهي، السينمات، كنا نجوب المدينة بالساعات فوق دراجتها النارية ..

أحببت عشقها للحياة وجنونها وبادلتها إياه، فأيقنت بعد عدة لقاءات معي أنني فارس أحلامها المنتظر ..وأخيراً وليس آخراً (جومانة) امرأة مثيرة ترتدي ما قل من الملابس ودل على مفاتنها الطاغية، مطلقة حديثاً، وفي احتياج لمن يشعرها بأنوثتها ويمحو عنها شعورها بالإخفاق والفشل في حياتها، وهذاكان دور العبد لله، فقد عملت جاهدا على ذلك، وتطورت علاقتنا سريعاً حتى أصبحت تقضي ليلتين بمنزلي أسبوعياً..

قسمت الأسبوع بينهن الثلاثة، كل واحدة يومين واليوم الأخير أقضيه مع أصدقائي بالملهى نسهر ونشرب، وأشاطرهم مغامراتي الأسبوعية مع الثلاث فتيات..

كنت حريصا على أن تكون كل واحدة منهم في قسمٌ مختلف عن الآخر، حتى لا يحدث أي تصادم بينهم.. ذات يوم مرت الأيام، وكنت أسيطر على الوضع تماماً، أعيش دون جوان زماني، أتنقل بين نسائي الثلاث، وأُشعر كل واحدة منهن بأنها أميرتي، وأنا أميرها الذي بعثه لها القدر لجعلها أسعد امرأة بالكون..

وبفضل اختلافهن، كنت أشعر بشعور مميز جداً ومختلف كل مرة ، لكن دوام الحال من المحال، فقد تغير كل شيء بين ليلة وضحاها، ارتكبت خطأ كبير في العمل لا يغتفر قمت بتسجيل معلومات خاطئة كادت أن تتسبب للشركة بخسائر فادحة، وصدرقرار بفصلي عن العمل، ولكن صديق والدي تدخل لحل الأزمة، وتم نقلي لقسمٌ آخر ووظيفة أقل، أصبحت مساعدا لأحد الموظفين ذوي الخبرات، ومن هنا التقيت بـ (سلا) ..وما أدراك ما سلا، وقعت أنا حينها مغشياً علي، وبدأ دون جوان رحلته الجديدة في الصعود نحو الهاوية...

كانت امرأة لم أعهدها من قبل، ساحرة في ثوب امرأة، جميلة ذكية أنيقة ذات شخصية قوية، فريدة من نوعها، والحكمة تقتضي أن أبتعد سريعا عن شخصية كتلك، فهي ستكشفني سريعا ..لكني لم أستطع الهرب بعيداً عنها، فقد أسرتني بسحرها، سجنتني كالعصفور خلف قضبان بريقها، وجدتني أهرُب منها إليها، تسوقني مشاعري نحوها، فما كان مني سوى الاستسلام والانقياد وراء رغباتي، وبدأت أغزل خطتي وأحيكها بعصارة خبرتي بالنساء، أهملت الثلاث فتيات الأخريات كثيرا، فقد احتجت كل وقتي وطاقتي وخبرتي للإيقاع بسلا، فهي ليست صيدا سهلا على الإطلاق، فإن وضعت كل غزواتي السابقة بكفة ميزان أمامها فسترجح كفتها بالتأكيد، كانت نداً صعبا أعترف ولكن في النهاية أنا "الأستاذ "

بدأت البحث عن محاور اهتماماتها، وجدتها عضوا بعدة جمعيات نسائية هادفة للدفاع عن حقوق المرأة في المجتمع، وتعصبها الشديد لمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة، فبدأت أولى خطواتي بالاتفاق

مع زميل لي بالشركة، كنت قد أعطيته عدة دروس ونصائح فيما يخص ترويض النساء..وكان ممتنا جداً لي وجاء دوره في رد المعروف..

وفي أحد الأيام كنا نتناول الغداء في الاستراحة، فاصطدم زميلي في الحديث مع زميلة لنا عن حق المرأة في العمل قائلاً : لا أحبذ عمل المرأة من الأساس، ففي الشركة التي نعمل بها مثلاً عدد النساء العاملات أضعاف عدد الرجال، فلو تنحت النساء جانباً لوفرت آلاف وآلاف فرص العمل للرجال العاطلين ، ثم إن عمل الرجل هو عمل أساسي فالرجل هو الذي يتكفل بالأسرة، ويتحمل على عاتقه مسؤولية أطفاله وزوجته، أما عمل المرأة مجرد عمل ثانوي لا يعود بفائدة إلا على نفسها فقط، فهي ليست مسؤولة عن كفالة أسرتها...

لمحت حينها الشر يتطاير من عين سلا، فسبقتها أنا مهاجما إياه وقلت : وهل تريد للمرأة التي تمثل نصف المجتمع أن تفقد استقلاليتها و تتحول لتابع ليس إلا، وتعتمد على الرجل اعتماداً كلياً ليستغلها حينها أسوأ استغلال، فمعظم رجال اليوم أصبحوا أشباه رجال يستغلون ضعف المرأة ليرضوا غرورهم ويشبعوا ذواتهم المريضة ، ثم إن طلقها أو توفى ماذا تفعل حينها ؟ على من ستعتمد هل تذهب لتبحث عن رجلاً آخر يتكفل بها؟؟

بعد حرباً طويلة المدى مع رجعية المجتمع وتخلفه وبعدما وصلت النساء لأعلى المناصب وأصبح لها شأناً عظيماً، تريد أن تعود بها مئات السنين للوراء مجدداً لنقطة الصفر؟؟حينها لمحت بريق الاعجاب يضوي في عينيها، فازداد حماسي وهاجمته أكثر وبدأت ألقي بوافر المعلومات التي جمعتها من خلال الإنترنت عن الاستفتاءات والأرقام القياسية التي حققتها النساء..وذكرت عدة شخصيات نسائية ذوي شأن وبصمة واضحة أثرت تأثيراً عظيماً في المجتمع...

ومنذ ذلك اليوم توطدت علاقاتنا كثيرا وبدأت حصونها تتساقط تدريجيًا وانهزمت كل مقاومتها، وتعلقت بي وبأفكاري المتشددة والمتحيزة تحيز كامل لتحرير المرأة واستقلاليتها التامة، وأصبحنا نقضي الكثير من الوقت داخل الشركة وخارجها.

اتسعت الفجوة كثيرا بيني وبين الفتيات بسبب انشغالي الكبير عنهم، ريهان لم تسبب لي أي مشاكل..فقد كانت ترضى ولو بالقليل مني، يارا ابتعدت كثيرا عني بسبب إهمالي لها، أما من تسبب لي بمشاكل حقيقية هي جومانة، كانت تطاردني في كل مكان وكادت أن تسبب لي مشاكل مع سلا .. لذا قررت أن أخرجها من حياتي بذكاء وبطريقة دبلوماسية ودون إثارة أي فضائح حتى لاتعلم سلا بالأمر، بدأت أفكر ملياً ورسمت خطة جيدة لكن الوقت لم يسعفني لتنفيذها..فذات مساء كنت أتناول العشاء برفقة سلا في أحد المطاعم الراقية فرأيتها من البعيد تدخل المطعم، حاولت إخفاء نفسي حتى لا تراني، دفعت الحساب وسحبت سلا بسرعة للخروج من الباب الخلفي مدعياً أنني رأيت صديق غير مرغوب فيه، ويبدو هذا الباب يخص عمال المطعم فما أن خرجنا إلا ووجدنا أنفسنا في زقاق ضيق، خافت الإضاءة، يحوي حاويات قمامة حديدية ضخمة متراصة بجانب الحائط، يلقون بها فضلات الطعام، سحبت سلا غير مكترث بتذمرها وما هي إلا خطوات حتى اخترق صوت جومانة سكون المكان، يبدو أنها رأتنا وتتبعتنا، التفتنا لصدى صوتها وهي تقول :

- لمَ الهرب أيها الحقير؟، إن كنت رجلاً حقاً كنت ستواجهني

التفتت سلا ناحيتي قائلة : من هذه هل تعرفها ؟

أمسكت يدها، أسحبها نحوي قائلاً : هيا سلا لا تكترثي بها، هيا نرحل من هنا

ردت جومانة : هل تريدين أن تعرفي من أنا حقاً ؟

أنا صديقته حبيبته التي تشاركه الفراش وتنام بين أحضانه..

انتزعت سلا يدها من يدي وابتعدت خطوتين للخلف وهي تنظر لي بصدمة

قلت لها بتوسل : لا تصدقيها سلا هي من تطاردني، لقد عرضت عليّ الحب مرارا ورفضتها.. لكنها لا تكف عن مطاردتي، هي تفعل ذلك فقط كي تدمر علاقتنا أرجوكِ حبيبتي لا تصدقيها ..

نظرت لي سلا بثقة قائلة : مؤكد لن أصدقها، فأنا أثق بك تماماً

ثم نظرت لها بازدراء وأضافت : ثم أنا متأكدة أنك لن تنظر لواحدة كتلك..

حينها تطايرت شرارات الغضب من ملامح جومانة وضيقت عينيها في نظرة لا تنبىء بالخير.. توشك بهبوب عاصفةٌ هوجاء، وقد كان في لحظة واحدة ودون سابق إنذار هجمت عليها كحيوانٍ مفترس ينقض على فريسته المسكينة، فجأة تمسكها من شعرها بقوةٌ تكاد تقتلعه من جذوره، وتصفعها بعنف وتلكمها بقبضتها كما تفعل النساء في جولات المصارعة الحرة، تنعتها بأوصاف بذيئة، ولأن جومانة ضخمة الحجم كالثور الغاضب، وسلا أمامها كغزالٍ صغير لا يقوى على الدفاع عن نفسه، كانت تستنجد بي وهي تُضرب ضرباً مبرحاً، حاولت أن أفصل بينهم وأنتشل سلا من بين أنيابها بصعوبة فتركتها واشتبكت معي تضربني بهستيرية وتهينني، ثم صفعتني بقوة، فلم أشعر إلا وأنا أصفعها بكل قوتي لترتطم رأسها بالزاوية المدببة لصندوق القمامة الحديدي وتسقط أرضاً مغشياً عليها، وفي بحر ثانية امتلأت الأرض من تحت رأسها بالدماء، نظرت برعب ناحية سلا التي بادلتني قلقي، ثم انخفضت نحوها، أمسكت بمعصمها تستعلم عن نبضها، ثم عاودتني النظر بذهول، وهي تقول : لا يوجد نبض

تيبست قدماي، اتسعت عيناي وتوقفت أنفاسي رعباً..

وقفت سلا مسرعة تعدل شعرها الأشعث نتيجة المشاجرة وملابسها المبعثرة، ثم سحبتني من يدي خلفها، تتبعتها بذهول حتى وصلنا نهاية الزقاق، وخرجنا للشارع الرئيسي، وتوجهنا نحو سيارتي، ساعدتني لأركب واستقلت هي كرسي القيادة وانطلقت مسرعة حتى وصلت لمنزلي، لم نتحدث طوال الطريق كان الصمت سيد الموقف، فما حدث يفوق أي كلام قد يقال..

وكما أنا مشدوهاً مذهولاً مما اقترفته يدي، نظرت ناحية سلا وأنا أردد دون وعي، لقد قتلتها.. قالت لي : يجب أن تهدأ

وكأنني لم أستمع إليها، ومازلت أردد لقد قتلتها ..لقد قتلتها ...

صرخت في لأستفيق : اسمعني لم يرانا أحد، كنا هناك وحدنا، لن يعرف أحد بأي شيء مما فعلت، ولكن يجب أن تهدأ وتحافظ على رباطة جأشك، ولا يصدر عنك أي رد فعل خاطئ..وغداً ستأتي للعمل بشكل طبيعي وكأن شيئاً لم يكن، وتتصرف بمنتهى الهدوء واللامبالاة..حسناً ..

أومأت لها بالإيجاب، خرجت هي واستقلت سيارة أجرة وصعدت أنا لشقتي أجر قدمي جراً، ولا أصدق ما فعلت هل صرت مجرماً ؟

سقط مني المفتاح أكثر من مرة من شدة ارتجاف أصابعي، حتى فتح الباب أخيراً توجهت لغرفتي، لم أشعل الأضواء، لا أريد أن أرى انعكاس صورتي في المرآة، رميت بنفسي على الكرسي، في منتصف الغرفة نزلت دموعي بغزارة، ثم أجهشت في البكاء بنشيجٌ قوي، أبكي مستقبلي الضائع وسنين عمري التي سأهدرها خلف القضبان، ضللت أبكي وأبكي، حتى تراءى لأذني سماع حفيف بأرجاء الغرفة، توقفت عن النحيب، بصعوبة أكتم أنفاسي، وأسترق السمع جيدا، وتأهبت كل حواسي وليس أذني فقط ، تبا لقد سمعت صوتاً بوضوح، هذه المرة صرت متأكد أن هناك شيء يتحرك في إحدى أركان الغرفة وأشعر به يتوجه نحوي، كانت الغرفة معتمة، إلا من بصيص ضوء يرسله القمر عبر النافذة الزجاجية، وما أن اقترب هذا الشيء من الضوءتدريجياً حتى اتضحت ملامحه شيئاً فشيء، ليرحل نبضي لاحقاً بأنفاسي الهاربة حين رأيتها أنها هي جومانة تقف أمامي تقترب مني وهي مضرجة بالدماء التي تغطي كامل وجهها وملابسها، تحرك رأسها بغرابة، تقلص المسافة بيننا وتقترب أكثر وأكثر، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أركض هرباً من غرفتي، بل من المنزل ككل، لم أنتظر المصعد.

نزلت الدرج ركضاً بكل سرعتي حتى وصلت الشارع لأكمل ركضي دون هدى وأنظر خلفي كل ثانية حتي تملكني التعب والإجهاد فجلست أتلفظ أنفاسي على عتبات منزل يحاوطه الضوء من كل مكان، بحثت عن هاتفي لأحدث سلا وأخبرها بما حدث معي لكني نسيته في جاكيتي، هو وحافظة النقود، مؤكد لن أعود لهذا المنزل أبداً، حتى إن اضطررت للمبيت بالشارع، وهذا ما حدث بالفعل، ضللت جالساً على تلك العتبات حتى الصباح، ثم ذهبت للشركة مباشرةً وقبل موعدي بساعتين وانتظرت سلا حتى تأتي لأخبرها بما حدث لي، وكل من يأتي ويراني يسألني عن مظهري المزري؟

أخبرتهم بتعرضي لحادث بسيط، وعندما حضرت سلا قصصت عليها ما حدث معي لكنها لم تصدقني، بل وعاتبتني أيضاً على مظهري واتهمتنِ بأنني أتخيل بسبب شعوري بالذنب....

لا أعلم كيف قضيت هذا اليوم شاردا خائفا بل مرتعبا حتى انتهى أخيراً، بعثت بسلا لتحضر لي بعض الأغراض والنقود من منزلي فأنا لن أعود له أبداً..

نزلت بفندق، دخلت غرفتي، ارتميت على الفراش، ولم أشعر بنفسي إلا ليلاً وكأنني لم أنم منذ شهور، استيقظت مفزوعاً من كابوساً راودني لأجد العتمة تحاوطني من كل مكان، بحثت عن زر الضوء وأنا أرتجف حتى وجدته، أصبحت أخشى الظلام، بل ارتعب منه، تنهدت بارتياح، حين أضاءت الغرفة أخذت حمام سريع وارتديت ملابسي، أريد أن أختلط بالناس، لم أعد أرغب في البقاء وحدي ليلاً، طلبت المصعد للنزول وحين وصل وفتح بابه، اتسعت عيني على آخرها ورجعت للوراء بضع خطوات في ذهول ، لقد وجدتها تقف منتصف المصعد تنظر لي بسخرية وكأنها تخبرني بأنني لن أستطيع الهرب منها أبدا، ركضت نحو السلم ونزلت بسرعة البرق، توجهت للمطعم وجلست بين الناس، أتلفت حولي، أشعر بها في كل مكان، خشيت الصعود لغرفتي وحدي، ادعيت المرض وطلبت من أحد العاملين مرافقتي ومساعدتي في جمع أغراضي، وفي ظرف دقيقة انتهينا، وغادرت هذا الفندق نهائياً...

ذهبت لأحد أصدقائي المقربين للمكوث عنده ودعوت الله ألا تلحق بي هناك، لم أنم طوال الليل، جالساً منتظر أن أجدها أمامي في أي دقيقة حتى الصباح، ذهبت للعمل، التقيت بسلا، وقبل أن أخبرها بما أصابني البارحة صدمتني هي بنشر خبر مقتل جومانة بالجريدة، والبحث عن قاتلها..

ارتميت على الكرسي وضعت رأسي بين كفاي، أشعر بنهايتي قد اقتربت.

حاولت سلا أن تطمئنني قائلة : لا تقلق لم يراك أحد ولا يعرف أي شخص ما حدث، المهم الآن أن الشرطة مؤكد أنها ستقوم بالتحقيق في الأمر، قد يأتوا هنا وقد يستدعونا للذهاب إليهم للتحقيق معنا ، يجب أن تتحدث معهم بثقة حتى لا يشك أحد بأمرك، وتجيب عن أسئلتهم بمنتهى الهدوء، وتثبت لهم أنك ليس لك أي دخل بالموضوع من قريب أو من بعيد... هل فهمت ؟

نظرت لها بشك قائلاً : لا أعتقد ذلك، بل أتوقع أن أعترف من أول سؤال يوجه لي، جلست بجواري، احتضنت كفي بحنان قائلة : لا تنهار أرجوك كل شيء سيكون على مايرام، صدقني أنا لن أتركك أبدا، افعلها من أجلي..

شددت على يدها قائلاً : لا تتركيني سلا لم يعد لي أحدا غيرك..

أومأت لي بابتسامتها الهادئة الجميلة التي تنسيني كل ما يجول بخاطري من مخاوف وكل ما يحمله عقلي من تساؤلات ستودي به للجنون..

عدت لمنزل صديقي مثقل بالأفكار وبما قد يحدث في التحقيقات

هل سيكشفون أمري وبأنني من فعلها ؟

هل سأصمد أمامهم إن قاموا بالتحقيق معي ؟

بت أراها في كل الأوقات، وأتخيلها في كل الأماكن، الأوهام سيطرت على حياتي وعدم النوم أصبح يؤرقني كثيرا ويتلف أعصابي، فحتى الساعات القليلة التي أنامها تقتحم حلمي، وتحاول قتلي بوحشية، فأستيقظ منهاراً ولا أستطيع النوم مجددا..

في إحدى الأيام كاد الصداع أن يفجر رأسي، جلست على حافة النافذة شارداً، ألتهم سجائري برفقة كوبٌ ضخم من القهوة، لتقتحم الغبية ريهان غرفتي فجأة ودون سابق إنذار لتفزعني، فكدت أسقط من النافذة لولا أن تركت كوبي هو من يحلق في الهواء وتشبثت يداي بقوة بأطراف النافذة وحافظت على توازني بصعوبة على صرخاتها الهستيرية وما أن اعتدلت حتى وجدت الغرفة امتلأت بموظفي الشركة الذين ركضوا نحوي ليمنعوني من قذف نفسي من النافذة بعدما قالت لهم من بين صرخاتها أنني أحاول الانتحار..

أقسمت لهم أنني فقط كنت أجلس على حافة النافذة ولم يصدقني أحد، حتى سلا أيضاً اعتقدها صدقت قصة الانتحار بسبب حالتي النفسية المتدهورة، تقربت إلي أكثر، حاولت بكل ما استطاعت أن تخرجني من أزمتي النفسية كانت تقضي معي ساعات طويلة بعد انتهاء العمل، لم تترك مكاناً لم تأخذني إليه، كنا نتحدث عن كل شيء بدأ قلبي ينبض للمرة الأولى بحياتي، تعلقت بها كثيرا بل وأحببتها من كل قلبي ولم أعد أرغب في الابتعاد عنها ثانية..لو لم تكن تلك الظروف تحاوطني لكنت تزوجتها فورا...

في اليوم التالي اقتحمت يارا مكتبي الذي أصبح مشاعاً للجميع كالقذيفة وهي تلقي عدة أوراق في وجهي، أمسكتهم انظر لهم باستغراب، الأولى بها رسم سكين، والثانية رسم قطرات دماء، والثالثة امرأة تصرخ والسكين على عنقها..

رفعت رأسي نحوها وقلت : ما هذه الرسوم ولم تعطيها لي ؟

ابتسمت بسخرية قائلة : حقاً ألا تعلم ما هذه !

تلك هي الأوراق التي ترسلها لي كل يوم بين أوراق العمل أيها الحقير، وكل هذا فقط لأنني تركتك وخرجت من حياتك، ألم تسأل نفسك لمَ فعلت ذلك ؟

لأنك من أهملني، من ابتعد عني، من لم يعد يسأل عليّ حتى باتصال هاتفي رغم أننا نعمل بذات الشركة، وفي النهاية تعاقبني وأنت المخطئ، كل يوم ترسل لي ورقة تهديد، يوم سكين ويوم دماء، ويوم امرأة تُقتل...

كنت أخبئ الأوراق وأصمت لعلك تعود لرشدك، لكن لسوء حظك أنني لم أستلمها اليوم، وذهبت للمدير مباشرة، ووجد ورقة اليوم التي تهددني فيها بجملة صريحة (سأقتلك)

حاولت التحدث لكنها لم تعطيني فرصة التفوه بكلمة واحدة

قالت : لا أريد أي تبرير منك أو أي أكاذيب، وفرها للمدير حين يستجوبك عما تفعله معي..

ثم خرجت مسرعة وصفقت الباب خلفها على عينيّ الذاهلتان

وبعدها بدقائق استدعاني مدير الشركة وأخذ يوبخني على فعلتي أقسمت له أنني لم أفعل شيئاً، لم يصدقني وطالبني بعدم الاقتراب منها، وبأنها فرصتي الأخيرة قبل أن يطردني من العمل نهائياً..

أمشي في الممر ببطء، أشعر بالأرض تميد بي وبرأسي، تتقاذف آلاف الأسئلة؟؟

لِمَ يحدث معي ذلك ؟ لِمَ لا تتركني المصائب وشأني ؟

لِمَ تتدهور حياتي كل يوم أكثر مما قبله ؟ هل هذا عقاب عما فعلت !!!

لا أعلم إن لم تكن سلا بحياتي تؤازرني وتقف بجانبي، ماذا كنت سأفعل ؟

في اليوم الذي يليه ذهبت الشركة وكنت قد قررت قضاء اليوم برفقة سلا ما إن ينتهي يوم العمل، فأنا أحتاج لمرافقتها كثيرا حتى تنسيني بعضٌ ما حدث بالأمس..

على الأقل بالرغم من عدم استطاعتي إخبارها بما حدث مع يارا لتساعدني في معرفة من فعل معي ذلك خشيةٌ أن تذهب إليها وتستجوبها وتعلم بأمر علاقتي بها، ثم معرفتها لن تغير في الأمر شيء، فقد حدث ما حدث، لكن المصائب يبدو منذ علمت بأمري لم تضل الطريق أبدا ، فمصيبة اليوم

أسوء مما سبقها بمراحل فما أن دخلت مكتبي حتى دخلت سلا بوجهٍ مظلم ترمقني بنظرات غاضبة وقالت بتوتر : لقد تأخرت ساعة كاملة..

أومأت بلا مبالاة فقالت بصوتٍ خفيض وهي تجز على أسنانها :

هناك محقق بالخارج يحقق مع الجميع في مقتل جومانة .....

توقف الهواء فجأة عن الوصول لرئتي، شعرت بالاختناق، تيبست كل مفاصلي، وتشنجت أطرافي، وألمٌ حاد اجتاح معدتي..

تحركت سلا نحوي، احتضنت يدي لتهدئ من روعي ولامست بكفها الآخر خصلاتي..

بحنو قائلة : أريدك قوياً واثقاً لا تخف ولا تتوتر، إن شعر بتوترك سوف يشك بك

لا تثرثر كثيرا فقط جاوب باختصار وثبات حسن.....

طرقاتٌ متتالية على الباب بترت جملتها الأخيرة، فابتعدت مسرعة ودارت حول المكتب، وجلست أمامي، دخل هذا المحقق بعدما أذنت له بالدخول طالبني بالإجابة عن عدة أسئلة سوف يطرحها بشأن مقتل جومانة بعدما طالب سلا بالخروج، أجبته : بكل تأكيد، وأخذ يستجوبني و يمطرني بأسئلته: ما نوع العلاقة بينكما ؟ هل كنت تراها خارج العمل ؟ متى كانت آخر مرة رأيتها ؟

هل هناك مشاكل بينكم من أي نوع؟؟ فقد قال لي البعض أن علاقتكم كانت متوترة في الآونة الأخيرة وسمعكم أحدهم تتشاجرون ذات يوم؟؟

أجبته بالنفي، وبأننا تشاجرنا بسبب فقدها لورقة هامة تخص العمل ووجدتها وانتهى

الأمر، كنت أتصبب عرقاً وترتجف كل خلجاتي من الداخل محاولاً التظاهر بالبرود والجمود.. لكن نظراته القاسية المتهمة تبعثرني وتشتت تماسكي، حتى نظر لي بعينيه الصقرية في عمق عيني وسأل بثقة وكأنه يضعني أمام الأمر الواقع ؟؟

أأنت متأكد أنك لم تكن على علاقة بها ..؟؟!!!

هربت أنفاسي وشحب وجهي، أنهار تماسكي وسقط صمودي وبنبرة متوترة وكلمات متلعثمة أجبته : لا لم يكن هناك من علاقة، فقط العمل ما كان يجمع بيننا

ابتسم بسخرية، أطفأ سيجارته وهم بالوقوف قائلاً بنبرة ساخرة ذات مغذى :

لن أقول وداعاً، فيبدو أننا سنتقابل مجدداً وقريباً جداً أيضاً، وبشكل أكثر رسمية

سحب علبة سجائره وولاعته من فوق المكتب وضعهم في جيبه ببرود وخرج وتركني، سقطت فوق الكرسي، أحاول السيطرة على أنفاسي المضطربة، وأطرافي المرتجفة، تباً لقد جعلته يشك بي وبجدارة، لكن كيف يعلم الجميع بأمر علاقتنا! واحدٌ فقط من أخبرته بذلك مؤكد هو من نشر الخبر وأخبر الجميع وعندما أنكرت ذلك حين سألني، شك بي وبأنني لي دخل بمقتلها لهذا أُنكر الأمر..

تحركت مسرعا نحو الحمام نظرت لنفسي في المرآة، وجهي محتقن بالدماء، أشعر بالحرارة تتصاعد منه، ورأسي أشعر به سينفجر، وضعته تحت صنبور الماء لعدة دقائق حتى سمعت باب إحدى الحمامات يفتح ببطء، رفعت رأسي الذي يتقاطر منه الماء أنظر للباب من خلال المرآة باستغراب، من يفعل ذلك يا ترى ..!!!

ومازال يفتح تدريجياً ويصدر صوتاً مستفزاً ولا يخرج أحد، حتى ظهر ذراع نسائي عاري، توقفت أنفاسي، أدعوا الله أن تكون امرأة قد أخطأت الحمام رغم أني أعلم جيدا لمن هذا الذراع، فأنا أحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب، وما أخشاه قد حدث بالفعل، خرجت جومانة تنظر لي بكره وحقد، تقترب مني وأنا وكأن قدماي قد التصقت بالأرض، لا أستطيع الحركة، وبحركة بطيئة أخرجت ذراعها الآخر الذي كانت تخفيه خلف ظهرها، ليظهر السكين الرفيع الذي تتشبث به يدها بقوة، وقالت من بين أسنانها :

ستموت ....اليوم سوف تكون نهايتك ...

عادت أنفاسي الهاربة تضرب قلبي بقوة، حركت قدماي بصعوبة للهرب منها قبل أن تنقض علي، أركض في الممر بسرعة، أنظر أمامي تارة وخلفي تارة، حتى اصطدمت بشخص، لألتفت وأجد ذلك المحقق أمامي وجها لوجه، نظر لي بحدة وبصق كلماته في وجهي :

لمَ أنت مرتعب هكذا ! مما تهرب هل يطاردك شبح أم ماذا. !

صدمتني كلماته ابتعدت عنه عدة خطوات قلت له بذات حدته : كنت أركض لألحق بصديقي ما شأنك أنت ؟ ثم تركته وابتعدت متجها لمكتبي لأواري فيه خيبتي وأعزي نفسي لاقتراب نهايتي..

دخلت سلا مكتبي وأغلقت الباب تتحدث إلي بغضب : ما بالك أنت؟ قال لي أحد الموظفين أنك كنت تركض في الممر كالمجانين، بات الجميع يسخر منك، ماذا تحاول أن تفعل؟؟

قاطعتها بغضب مماثل : كنت أهرب منها يا سلا كانت تحاول قتلي، ظهرت لي بالحمام وهي تشهر سكيناً بوجهي وتقول لي أنها ستقتلني..

قاطعتني بنفاذ صبر : اصمت لا أريد سماع تلك الخرافات مجدداً، ما يهمني الآن هو ما فعلته مع المحقق ماذا قلت له ؟ أدعوا الله ألا تكون قد أفسدت الأمر

نَظرتُ أرضاً، لم أستطع مواجهتها، جَلست قائلة : يا إلهي كنت أعلم أنك ستفسد الأمر.. ماذا حدث؟ أخبرني ماذا قلت له ؟

قلت لها : لا يهم ما قلت، المهم أنه شك بي وسوف يستدعيني للتحقيق قريبا بمكتبه وبشكل رسمي...

احتضنت رأسها بكفيها وقالت : إنها مصيبة، لم تستطع الصمود هنا فماذا سيحدث هناك !

نكست رأسي قائلاً في حزن : ربما هي النهاية إذا قد آن أوانها، حين يستدعوني سأعترف بكل شيء، فأنا أستحق أن أحاسب على فعلتي

اتسعت عينا سلا تنظران لي بصدمة ثم تحركت نحوي احتضنت كفي بين كفيها الدافئتان.. ورفعت رأسها لتواجه عيني بنظرة استجداء وقالت بشفتين مرتجفتين :

أرجوك لا تفعل ذلك، أنت لم تقصد، أنت فقط كنت تدافع عني وعن نفسك أنت لا تستحق أي عقاب، هي المخطئة، وليس أنت ...

سكتت للحظات وكأنها تفتش عن كلمات، ثم أكملت بنبرة أسمعها للمرة الأولى هامسة مهتزة..

ضعيفة عميقة كأنها أتت من أعمق جزء بداخلها : لن أستطيع الابتعاد عنك .....

لن أقوى على العيش دونك ..... لن يتقبل قلبي احتمال غيابك .....

أنا أحبك.....هل فهمت .... أحبك

مذهولاً أنظر إليها، لم أتوقع أبدا، أو حتى أحلم باعترافٍ كهذا، ومن مَنّ سلا، لم أعد أعلم حقاً ما أشعر به، بالمفاجأة، بالدهشة، بالسعادة، بالخوف من أن أبتعد عنها بعدما قالت ما قالته ..

أنظر لها بجمود، أنا من صنعت قاموساً خاصاً بي للتعامل مع النساء هربت مني الكلمات فقط ابتسامه غبية رسمتها على ملامحي، استبدلتها بكلماتي المفقودة، حتى لمحت تلك الدمعة المعلقة بذاك الرمش الطويل تسقط على استحياء لتستقبلها وجنتها باستنكار، وكأنها المرة الأولى للقائهما معاً..

سلا تلك الشخصية القوية الفولاذية التي لم ألمح طيفاً لضعفها يوماً، تسقط دموعها اليوم من أجلي..

لم أتمالك نفسي حينها، مددت أصابعي والتقطت تلك الدمعة الثمينة وكأنها كنزا أحتفظ به بين مسامات جلدي.. تغلغلت أصابعي بين خصلاتها الحريرية لتسحب رأسها برفق وتزرعه بين أحضاني، دفنت رأسي في خصلاتها استنشق عطرها الذي يخدرني كالمدمن الذي يلتهم جرعته بشراهة..

عدت لمنزل صديقي يتراقص قلبي فرحاً، أحمل بداخلي كمٌ من السعادة لم أعرفه أو أعايشه من قبل، وللمرة الأولى بحياتي أشعر بالاكتفاء، لا أريد امرأة أخرى غير سلا،

لا أعلم هل ما أحمله من مشاعر تجاهها، هل هي حقاً مشاعر حقيقية؟؟

وكانت ستغمرني رغم كل شيء، أم أن ما أعايشه بداخلي نحوها متأثر بتلك الحادثة التي قربت ما بيننا كثيرا، فتعلقنا ببعضنا البعض؟؟

لا يهم كل هذا الآن، المهم هو ما أشعر به، وما أحمله بداخلي من سعادة وحب ما إنساني، مأساة المحقق اليوم وشبح جومانة الذي يطاردني وكل هواجسي الأخرى

ولم تتركني سلا حتى في حلمي لتبعد عني تلك الكوابيس التي ترافقني كل ليلة، تلون حلمي بلون الحب، وتداعب أنفي بعطرٍ كوني فريد لا يليق بغيرها، وتغشي عيني ببريقٍ استثنائي يدمج بشرتها البيضاء الناصعة بشعرها الأسود الحالك في مشهدٍ ساحر يزيدها ألقاً، ثم تبعثرني بتلك الحدقتين الواسعتين، الرائعتين حتى في حزنهما وتلك الدمعة التي اختطفتها أصابعي واحتفظت بها مسامي كحدثٍ فريد وتلك الضمة التي لطالما حلمت بها..ولم أتخيل أن روعتها ستتربع على عرش الخيال، أردت أن أتخطى الواقع وأستزيد في الحلم، فأقتنص تلك الشفتين الورديتين المكتنزتين لكن ذاك الجرس المزعج سرق فرصتي وولى هارباً، استيقظت مرغماً أبحث عن هاتفي بين الأغطية، وقبل أن أسب المتصل.. انتبهت للاسم على الشاشة "سلا"، اعتدلت جالساً واستفقت، في بحر ثانية فتحت الخط، وقبل أن أتفوه بحرف وأستفسر عن سر هذا الاتصال المتأخر أتاني صوتها صارخاً :

كريم لقد كنت محق، أعتذر لأنني لم أصدقك هي فل فعلا موجودة زارتني الليلة لقدحاولت قتلي..

قلت لها : اهدئي سلا اهدئي حبيبتي واحكي لي ما حدث؟

أجابت تحاول السيطرة على أنفاسها وصوتها المرتجف : كنت نائمة، شعرت بشيء يتحرك حولي في الغرفة، استيقظت فوجدتها تقف بجانب فراشي وتمد يدها نحوي وهي تقول: لن أقتله هو سأقتلك أنتِ وأتركه يتعذب لأنه السبب في موتك، وظلت تردد: سوف أقتلك، ستموتين.....

ركضت هاربة لغرفة أمي وأبي ايقظتهم وقلت لهم ان هناك سارق بالشقة لم أقل

لهم شبحاً مؤكد لن يصدقوني سيعتقدون أنني اهذي مثلما فعلت أنا معك، هم معي الآن لكنني ما زلت خائفة جداً..

قلت لها : اهدئي الآن ولا تجلسي وحدك أبدا، ابقي برفقتهم حتى الصباح، وعندما نلتقي غدا مؤكد سنجد حلاً لهذا الأمر..

أغلقت معها بعدما حاولت طمأنتها وتهدئتها برغم القلق والذعر والغضب الذي أحمله بداخلي، تبا لك يا جمانة تريد أن تنتقم مني بها، لو أستطيع الذهاب إليها لكنت ركضت لبيتها وانتشلتها من بين عائلتها وخبئتها بين ضلوعي حتى لا تستطيع إيذائها أوالمساس بها.. ل

لم أستطع النوم، أجول في غرفتي جيئة وذهاب، للمرة الأولى لا أخشى منها، أتمنى أن تظهر لي الآن لأنتقم منها وأقتلها مجددا ..

مع أول خيوط الصباح ارتديت ملابسي سريعا وانطلقت للشركة، كنت أول الواصلين، حاولت الاتصال بسلا مرارا لكن هاتفها مغلق ولا أعلم لمَ، انتظرت وانتظرت، حضر كل العاملين ولم تأتي هي، للمرة الأولى تتأخر لهذا الحد..

ربما غطت في النوم بسبب استيقاظها طوال الليل، اتصلت مجدداً ولا زال هاتفها مغلق، كل ما أريده فقط هو الاطمئنان عليها..

جلست ألتهم سجائري وأزفر بغضب وتوتر وصل لمنتهاه، السيجارة تتبعها الأخرى

حتى اقتحمت ريهان خلوتي قائلة : أريد التحدث إليك قليلا؟

زفرت دخان سيجارتي تجاهها ببرود قائلا : ليس الآن ربما في وقت لاحق ،وأشرت لها بيدي بعدم اكتراث لتذهب..قالت بسخرية ممزوجة بالغضب : حقاً؟ أي وقت هذا؟ أنا لم أراك منذ زمن إلاصدفة، حتى مكالماتي لا تجيب عليها، ماذا يعني هذا ...؟! هل يعني أنك قطعت علاقتك بي

لتشهق حينها يارا التي كانت تقف على عتبات باب مكتبي المفتوح ويبدو أنها استمعت لكل الحوار الذي تفوهت به الغبية ريهان..

تقدمت تنظر لي ولها قائلة بصدمة : هل كنت على علاقة بها ؟

ثم تحول حديثها لريهان : هل كان على علاقة بكِ ؟

أجابتها ريهان ببراءة : نعم كان يحبني ..... الحقيقة أظنه كان يخدعني

ضحكت يارا بسخرية وجمود وقالت من بين أسنانها : لا تقلقي لقد خدعني أنا الأخرى... والله أعلم خدع كم واحدة غيرنا ....!

لتدخل سلا هي الأخرى على وقع جملتها الأخيرة....يا إلهي هل يمكن لهذا اليوم أن يسوء أكثر من ذلك

تقدمت سلا نحوهم تنظر إليهم باستغراب وتوجه حديثها لي :

ماذا يحدث هنا؟ هل يمكنك أن تشرح لي معنى ما سمعته للتو ؟

قلت بتلعثم : سلا اهدئي أرجوكِ هناك سوء تفاهم في الموضوع، سأشرح لكِ كل شيء..وقبل أن أنهي جملتي قالت جومانة التي ظهرت من خلف سلا ولا علمٌ لي من أين خرجت :

لا تجهد نفسك في الشرح لأنني سأخلصك منها الآن، ورفعت يدها الممسكة بسكيناً رفيعاً لتسقط به فوق عنق سلا الرقيق وقبل أن تخفض يدها قَفزت من فوق مكتبي ورميت سلا جانباً وانقضضت عليها وسط صرخات الفتيات لتقع أرضاً، وأنا فوقها، استللت السكين من يدها المتشبثة بهبصعوبة، ولكن مهلا..... كيف تكون شبحاً وأنا أشعر بجسدها هكذا ؟

وكيف تقاومني وأتغلب عليها ؟

ليخترق سمعي ويشتت انتباهي صرخات يارا المتكررة :

لا تقتلها أرجوك فلينجدنا أحد..ما يعنيه هذا هل يعني أنهم يرونها مثلما أراها أنا ؟

فُتح باب المكتب على مصراعيه ودخل المدير ومن خلفه كمٌ من موظفي الشركة يقول لي باستجداءٌ ساخر وكأنه يتحدث لمجنون :

اتركها يا بني لا تؤذها سنفعل لك كل ما تريده، لكن أرجوك لا تؤذها ..وأتى من خلفي اثنين رفعوني من فوقها بهدوء وبترجي، واستل أحدهم السكين من يدي في لمح البصر ليتنفسوا الصعداء كأنهم تخلصوا من مصدر الخطر، وكأنني كنت سأقتلهم بها جميعهم، وأنا مستسلم لذهولي أشاهد تلك المسرحية السخيفة التي لم يستوعب عقلي بعد فهم أحداثها، لتنتقل عيني لمشهد أكثر غرابة...!!

يساعد الفتيات جومانة علي الوقوف يحتضونها تارة ويرتبون ملابسها المبعثرة تارة أخرى، وهي تبكي بنشيجٌ قوي، وهم يحاولون تهدئتها...

تحدث ريهان إلى المدير بحماسٌ غاضب قائلة: لقد انقض عليها فجأة كالمجنون

وتكمل يارا بانفعالٌ كاذب : لقد أخرج سكيناً من ملابسه وحاول طعنها به..وكاد أن يقتلها لولا استنجادنا بكم..

نظرت بضياع نحو سلا التي كانت تنظر لكل ما حولها بجمود ولا يصدر عنها أي ردة فعل ، التقت أعيننا في لمحة خاطفة تعلقت فيها عيني بعينيها تبحث فيهما عن طوق نجاة تطالبهما بانتشالهما من هذا الضياع، من هذا الجنون ، لكن لمَ تلك النظرة الغريبة مستعصية الفهم، وهل تلك ابتسامة ساخرة التي أهدتها لي قبل أن تترك الغرفة ويتبعها الثلاث فتيات...

سقطت فوق الكرسي، يدور العالم من حولي بغرابة، ثم توقف كل شيء فجأة ..

لم أعد أسمع أو أشعر بشيء.. فقط أشخاص يتحركون من حولي جيئة وذهابا ويأتي غيرهم ...سقطت في حالة من اللاوعي، انفصلت عن الواقع حين عصي علي فهم ما كان يحدث، أو ربما حين بدأ عقلي يستوعب بعضاً من الحقائق الغائبة، فرفض التصديق، وامتنع عن استيعاب البقية المتبقية، وتقوقع داخل ذاته.. ظلت تلك الحالة تتملكني حتى أتى أفراد الشرطة لاصطحابي إلي قسم

الشرطة، وبعد التحقيقات، وشهادة الشهود التي أفادت إلى محاولة للانتحار حسب أقوال ريان، تهديد كتابي صريح بالقتل حسب أقوال يارا ومدير الشركة، تصرفات مريبة غير طبيعية في الآونة الأخيرة، مظهر خارجي مزري ، توتر وانفعال غير مبرر طوال الوقت، الركض بممرات الشركة بهستيريا وكأن أشباحاً تلاحقه، رؤية الكثيرين له وهو يتحدث إلى حاله...وأخيراً الشروع في القتل بغرابة وبطريقة جنونية..لذا قررت النيابة تحويلي لمستشفى الأمراض النفسية والعقلية للتأكد من صحة قواي العقلية... وها أنا أمكث هنا منذ ما يقارب الستة أشهر، ولن أنسى ما حييت ذلك اليوم، وتلك الزيارة حين أتت سلا لرؤيتي بعد مرور شهراً كاملاً على دخولي للمشفى.. لم أصدق عيني حين رأيتها قادمةٌ نحوي، أنيقةٌ كعادتها بفستانٌ أسود يكاد يصل لركبتيها، يُظهر ساقيها الطويلتان الرائعتان ويبرز خصرها النحيل وتفاصيلها القاتلة، ترفع شعرها للأعلى في ذيل حصان حريريٍ متدرج حتى أعلى ظهرها يتمايل مع حركتها بروعة كحصانٌ عربي أصيل، لتترك لوحة وجهها فارغةٌ من أي إطار، فتبرز حدة ملامحها الفاتنة..يصدح كعب حذائها الرفيع على الأرضية الرخامية يكسر الصمت المطبق للمكان، يعبأ فراغ روحي، ينطق ما بداخلي من سكون، وتوازي دقاته دقات قلبي علواً.. جَلست مقابلةٌ لي تعلقت عيناي في عينيها الساحرتين المخادعتين، قالت وهي ترسم ابتسامة ساخرة على جانبي شفتيها :

لم ترغب الفتيات في مرافقتي فضلن استغلال وقتهن في عملٌ نافع أفضل من إهداره هنا في هذا المكان البائس برفقتك، ونصحنني بعدم القدوم لكنني بالطبع لن أفوت فرصة لقائك ورؤيتك في منزلك الجديد الذي وبالمناسبة يليق بك كثيرا، وأيضاً رغبت بشدة في رؤية تعابير وجهك حين أخبرك ببقية التفاصيل مؤكد عقلك استوعب الكثير، لكن ينقصك بعض القطع لتكتمل الأحجية وتتشكل الصورة أمامك بوضوح....ام م م م .....

من أين نبدأ .....منذ بدأت تلقي بشباكك حولي لاصطيادي أم منذ بدأت تتحرى عني وتجمع المعلومات من خلال زملائنا بالمكتب لتحدد نوع الخطة التي ستتبعها للإيقاع بي ، في الواقع أنا أيضاً كنت أتحرى عنك وعلمت حينها بعلاقاتك الثلاث وباستراتيجيتك الجهنمية في اصطياد واحدة من كل مكتب حتى لا تعرف الأخرى وتقع حينها في ورطة وتسوء سمعتك بالمكان، فلا تستطيع الإجهاز علي بقية القطيع ..في الحقيقة غضبت كثيرا حينها لذا لم أكتفي بتحرياتي الداخلية، بل تحريت عنك خارج العمل أيضاً من خلال ضابط شرطة صديق للعائلة ليحضر لي فيما بعد معلومات لا حصر لها، ويبهرني بصولاتك وجولاتك المخزية، قررت حينها أن ألقنك درساً لن تنساه ما حييت، انتقاماً لكل النساء اللاتي جرحتهن وخدعتهن تحت مسمى الحب، لتتعلم كيف تحترم النساء في حال خرجت يوماً من هذا المكان لذا اجتمعت بفتياتك الثلاث وأخبرتهم بحقيقتك ليتعاون معي للقضاء عليك بعد تخطيهم تلك الصفعة القوية..

لم يكن وجود جومانة أبداً مصادفة في المطعم، بل جاءت حسب الاتفاق بيننا، أما المشاجرة فكان مكانها حسب الاتفاق موقف السيارات لكنك من غير مكانها للأفضل ففي هذا الزقاق الخلفي نسبة وجود أشخاص غيرنا كانت معدومة، وحين صفعتها هي من ترنحت وألقت بنفسها لتصطدم اصطداماً طفيفاً بالحاوية، أما الدماء فكانت مزيفة كالخدع السينمائية، حبراً أحمر كانت تحمله معها، وعندما هَربت بك تباطأت في الطريق حتى تصل هي قبلي لشقتك، وكما تعلم فلديها نسخة عن مفتاح شقتك وحين انطلت عليك الخدعة جيداً، أكملنا مسلسل الثأر منك....

عدم قدومها للعمل كان مجرد إجازة، واعتمدنا على أنك لن تتجرأ عن السؤال عنها، أما الجريدة التي نشرت الخبر فمزيفة والمحقق مزيف أيضاً لم يكن سوى كومبارس لكنه أدى دوره ببراعة، جعلك ترتجف ذعراً حتى كدت تبلل سروالك...

ريان ويارا قاموا بدورهم على أكمل وجه، أما بطلة المسلسل جومانة فقد أجادت

دورها بامتياز، نجحت في إفقادك عقلك تماماً، وساعدها جبنك كثيرا..كل ما حدث لم يكن سوى خطة للإيقاع بك، وكل ما فعلته أنت هو السقوط فيها بمنتهى الغباء، رجعت للخلف أسندت ظهرها فوق المقعد بارتياح تنهدت بعمق وأكملت :

هل تعلم شيء.....لقد أعجبت بك حقاً في البداية قبل أن أعلم أي شيء، بهرني فكرك، وعقليتك، وثقافتك، تمنيت حقاً لو كنت فعلاً كما ادعيت.. أعلم ما تشعر به الآن، تشعر بالخيانة، بالخداع، بالقهر، بالغباء، تلك الأحاسيس شعرت بها كل امرأة أوهمتها بالحب يوماً، وتركتها في منتصف الطريق..فلتتذوق شيئاً ممَ صنعته يداك، سأتركك الآن لتستمتع بشعورك .....الوداع...

أودعها بعينين جامدتين ذاهلتين أحدث حالي بهستيريا : أنا يفعلن بي هذا.....

أنا أُخدع بتلك البساطة .....بعد كل خبراتي بعالم النساء تخدعني امرأة !!!

كيف وأنا الأستاذ ؟

ليكسر صمت المكان هذه المرة صدى ضحكتي الساخرة المجلجلة التي تكاد تُنطق

تلك الجدران الصماء والتي أستحق أن أبقى حبيسها للأبد ..

أشرف خائنة

خائنة؟؟.. نعم خائنة.. أعترف بذلك، ولا أتشرف بهذا الاعتراف بل يصفعني الندم صفعاً، و يشتعل بداخلي، الشعور بالذنب يحرق أحشائي، ما عاد بداخلي سوى الرماد وبعضاً من غبار الروح..أوقعت نفسي بفخ الخيانة ولم أستفق إلا بعد فوات الأوان بعدما خسرت أغلى ما لدي(زوجي) ولم أشعر بأنه أغلى ما لدي إلا عندما فقدته.. فهكذا نحن دائما لا نعرف قيمة ما لدينا إلا بعد خسارته..ولا نقدر ما نمتلك من ماس، وعيوننا مليئة بغبار الأنانية..

سأروي لكم قصتي بدموع ندمي علها، تفيد امرأة كانت ستفعل مثلي فتستفيق قبل أن تهوي ببئر نزوتها، وتخسر نفسها قبل حياتها!!

كنت من قبل فتاة رومانسية حالمة غارقة بين روايات الحب، وكلمات العشق، تحلم بفارسها الذي سيحملها علي حصانه الأبيض، ويطير بها في فضاءً لا يحمل سوى العشاق.. ولجمالي كانت تغرقني عروض الزواج، حتى وافقت عائلتي على شخص محترم، حسن الخلق، يمتلك عملاً ناجحاً!! أنا لا أنكر طيب خلقه، ولا أنكر أيضاً هداياه التي كان يغدقني بها، ولكنه لم يكن أبداً رجل أحلامي!! كان جاداً عملياً، وهذا أبعد ما يكون عما أريده وأتمناه بشريك حياتي..

حاولت الانفصال، ولكن مع ضغط الأهل وافقت على الاستمرار أملاً في اعتبار صمته خجلاً وفي تغيره بعد الزواج، بعدما أُصبح زوجته ولا حدود بيننا...

ولكنني اصطدمت بالواقع، فقد اكتشفت أن صمته، وجديته، وبروده هم جزء من شخصيته، غير تسخيره لوقته، وعقله، وتفكيره بالكامل للعمل، حاولت لفت انتباهه لما أحب، ولما أريد مراراً وتكراراً..

حاولت إقناعه بأن الحب والرومانسية المتبادلة بين الزوجين هو ما يروي شجرة الزواج، ويزهر أوراقها، وبأنني كالوردة، لا أرتوي سوى بالحب، لكنني لم أصل معه لأي شيء!!

فبدأت بالثورة والشجار للمطالبة بحقوقي، طالبته بنزع قناعه الثلجي، والتخلي عن برودة، ومبادلتي شغف المشاعر، طالبته بتخصيص بعض الوقت لي، والاهتمام بي كما يهتم بعمله، فأنا أيضاً أحتاجه بجانبي مثلما عمله يحتاجه، أنا أيضاً أستحق أن يسخر لي بعضاً من وقته، وبعد صراخي وشجاري، يجيبني بمنتهى الهدوء والبرود:

بأنه يعمل من أجل مستقبلنا، ولن يستطيع تغيير ذلك، وبأنه إن أراد أن يعبر لي عن حبه فسيكون بأفعاله وليس أقواله، هو لا يفقه تلك الكلمات، فهو رجل أفعال وليس أقوال...

مرت السنوات، واتسعت صحراء روحي، ولم أعرف للحب سبيلاً سوى سراباً يصنعه خيالي، أو شغفاً يراود أحلامي.. ومع نجاح عمله وتوسع تجارته، بدأ في الابتعاد عني طوال الوقت، والسفر لشهور، ولا يربط بيننا سوى مكالمات هاتفية في فترات متباعدة، وأغلبها للاطمئنان على الأطفال!!!

كنت قد يئست من استجداء الحب والمشاعر منه، واكتفيت بقراءتها بين سطور الكتب والروايات...

حتى أتى يوم كنت أعلق فيه على إحدي الأسئلة الشائعة على صفحات التواصل الاجتماعي، وهو عما تفتقده بحياتك؟؟

علقت بأنني أفتقد للحب بحياتي!!

حتى أتاني رداً من شخص : كيف لواحدة بجمالك أن تفتقد للحب؟؟ فإما الرجال قد أصابهم عمي النظروالقلب، وإما من تعيشين معه هو صخرة لا يعرف عن المشاعر شيء ولا يقدر ما بين يديه !!!

ابتسمت حقا فقد أتت كلماته على الجرح تماماً، طلب مني التحدث على الخاص! توترت قليلاً، فتلك كانت المرة الأولى التي أتحدث مع شخصاً لا أعرفه.. لكن الفضول كان أقوى مني، وقبلت التحدث معه، فقد راقتني كلماته، أو ربما لامست تلك الصحراء التي تسكنني!!

بقبولي التحدث معه كنت قد تنازلت عن أولى مبادئي، ومنذ تلك اللحظة بدأت سلسلة التنازلات وتغيرت حياتي تماما....

في البداية كنت أتحدث معه بحذر.. وكنت أشعر بالتوتر ربما لأنني كنت أعلم بخطأ ما أفعل!! لكنني لم أستطع إلا التمادي.. ثم تدريجياً بدأت أعتاد الوضع، حاجتي لهذا الشعور بدأت تثمل ضميري، ونفسي أعلنت تمردها و أقنعتني أنه لا خطأ فيما أفعل، فهي ليست سوى صداقة بريئة يشوبها بضع عبارات مجاملة لا ضرر منها، وبدأت أقتنع لرغبتي الشديدة في الاستمرار... ثم لاحقاً أصبح الوضع إدماناً !!!

فلا تشرق شمس الصباح دون الحديث معه، ولا يكون الليل ليلاً إن لم نتحدث لساعاتٌ طوال ...

هجرنا الأحاديث الكتابية، فلم تعد تغني ولا تسمن من جوع، وأصبح الهاتف رفيقي، لا يفارقني ليلاً ولا نهاراً...

كنا نتحدث في كل شيء وعن أي شيء، كنت دائماً ما أضع الحدود في حديثنا وأنبهه دائماً بأننا أصدقاء لا أكثر، ولا أفضل الحديث كثيراً عن حياتي الشخصية!!

ولكنه لم يكن يسأم أبداً من السؤال، ومن التدخل في تفاصيل حياتي، حتى أصبح يعرف كل شيء عن علاقتي المتوترة بزوجي منذ سنوات، وعن خيبة علاقتنا الآيلة للسقوط ...

وكان يتعجب جداً من استمراري معه!! ومن تضحيتي بالعيش مع شخص لا يقدر ما يملك بين يديه، و بأنني أستحق شخصاً يكرس كل وقته للاهتمام بي، و يتفنن في ابتكار الطرق لإسعادي، وبأنه يتمنى أن يكون هذا الشخص !!!!

رغم علمي بمشاعره نحوي منذ زمن إلا أن هذا الاعتراف الصريح أسعدني جدا !!

ورغم ذلك حاولت عدم إظهار سعادتي، و وبخته علي كلماته إلا أنه لم يتراجع بل قال لي "أنا أحبك"

وأنتِ تعلمين ذلك جيداً، فإحساسي يعبر عنه قبل كلماتي، أنا لا أطالبك بشيء..

أنا فقط أنثر حبي تحت قدميكِ، فهذا هو أقل ما تستحقين!!!

تراقصت نبضاتي على ألحان كلماته العاشقة، وزاد نقمي أكثر وأكثر على زوجي الغائب

بدأت أتقبل حبه بصدر رحب بل وبدأت أبادله المشاعر أيضا.. ألقيت بكل قناعاتي وراء ظهري، وانجرفت برغبتي في تلك المغامرة مجهولة المصير!!

حتى أتى يوم ميلاده، وطلب مني أن أهديه هدية، لكن هو من سيختارها، وكانت الهدية أن يلقاني...

في البداية رفضت، خشيت من تلك الخطوة ولكنه غضب كثيرا، حتى أنه امتنع عن الحديث معي لأيام، أحسست بفقد كبير وبفراغ أكبر، لم أكن أعلم حجم الحيز الذي يملأه بحياتي إلا عندما ابتعد عني !!

لم أستطع احتمال هذا الفراغ، لم أكن مستعدة للتخلي عنه .. لذا فقد وافقت على لقائه.

لتبدأ علاقتنا مرحلتها الأخيرة، وأكتب آخر سطورها بدموع الندم...

قابلته.....

كنت أتأنق وكأنني فتاة مراهقة، ساذجة بالثانوية، تستعد لتقابل فتى من المدرسة المجاورة ..

بدلت ملابسي أكثر من عشر مرات، كنت أريد أن أبدو أصغر، أن أبدو أجمل .. شعرت بتوتر كبير، وبخوف، سعادة، حماس وغضب، كم من المشاعر المتناقضة ليس لها أول من آخر، وأكثرهم هو الشعور بالخطأ الكبير المقبلة عليه ونتائجه الأكبر !!!

إلا أن شعوري بلهفة اللقاء قد أزاحت كل هذا جانباً... التقينا.....

كان يبدو وسيماً جداً أكثر بكثير من صوره التي كان يرسلها لي، وأنيقاً جداً بشكل يخطف الأنفاس... فرحت كثيراً من لهفته لرؤيتي، ونظرات الشوق التي تطوقني، وكلمات الإعجاب التي يمطرني بها، وسعادته الغامرة بلقائي، زال توتري سريعاً، وشعرت براحة كبيرة وأنا معه...

لم نتحدث كثيراً، فقد مللنا الأحاديث، حتى لم يعطيني الفرصة كي أتناول قهوتي، فقد أعد برنامجا مميز لليوم الأول الذي سنقضيه معا.

ذهب بي لكل الأماكن التي يحبها، وكان يحدثني عنها، أماكن رائعة الجمال، لم أكن أدري حتى بوجودها في مدينتنا، ومن أين لي أن أعلم بها، ثم مع من كنت سأذهب؟

صعد بي لقمة، رأينا من خلالها المدينة بأسرها، وركبنا مركباً صغيراً بالبحر، رغم علمه بخوفي الشديد من المياه، كنت متشبثة به طوال الوقت، وكان يطوقني بذراعه بخبث ليشعرني بالأمان.....

انتهى اليوم سريعا، ولم أجد حداً لسعادتي وجنوني، وكأنني مغيبة، كمن يلقي بنفسه في البحر، يعلم أنه سيغرق، لكنه يريد الاستمتاع بالمياه....

توالت اللقاءات بيننا، فلم نترك مكاناً لم نذهب إليه، وبالطبع أماكن بعيدة عن مرمى النظر، حتى أننا شاهدنا كافة الأفلام المعروضة بالسينما، ومؤكد رحلة البحر كانت شيئا أساسيا بكل الخروجات..

وعندما يأتي زوجي ليمكث معنا عدة أيام كنت أعد الايام بفروغ الصبر حتى تنتهي ويسافر مجدداً!!! سبحان مغير الأحوال... لا أعلم، أبتسم أم أبكي على حالي، فمنذ عدة أشهر فقط كنت أستَجدي منه يوماً زائدا يقضيه معنا ..

وفي أحد الأيام كنا قد اتفقنا على اللقاء، لكنه لم يأتي، اتصل بي وطلب مني الذهاب إليه بمنزله لقضاء اليوم معه هناك، فهو يشعر بالتعب، ولا يستطيع النزول، كنت أود الرفض وعدم الذهاب، لكن نفسي راودتني على الذهاب، فهو في الأول وفي الآخر

مريض، ماذا قد يحدث ؟

ذهبت إليه لأكتشف أنه يمثل المرض، و بأنه كذب عليّ لكي يستدرجني للذهاب إليه بمنزله، فمؤكد أنه قد مل علاقتنا هكذا، وأراد أن يضيف إليها بعض الشغف.

ووقعت أنا بمنتهى الغباء، أو ربما وقعت بإرادتي !!! فمنذ البداية لم يحدث شيء ضد رغبتي، لم يجبرني أحد على شيء كنت أسير في هذا الطريق وأنا اعلم بوقوعي في نهاية الأمر، وها أنا قد وقعت وقعاً مدويا، ولم أستفق إلا على فراش الخيانة.

ارتديت ملابسي غير مصدقة لما حدث، وما فعلت، وكيف فعلت، ذلك؟؟؟ كيف انحدرت لتلك الدرجة، وتدنيت لهذا المستوى، لم أستمع لما يقول، كلماته ضجيج في أذناي، وكأن كل الحب والشوق واللهفة التي كنت أشعر بهم تجاهه قد تبخروا فجأة، وتولد بدلا منهم كراهية واحتقار تجاهه وتجاه حالي، نعم لقد كرهت نفسي واحتقرتها كثيرا....

خرجت من شقته ركضاً وكأنني أريد الهرب مما فعلت، ولكن أين المفر، فقد كان ما كان...كنت أسير بالشوارع بلا هوى، لا أعلم أين أذهب، فقط أسير ودموعي في عيناي، لا أرى أمامي، أشتم وأسب نفسي، وللمرة الأولي تأتي صورة زوجي أمامي لتذبحني أكثر وأكثر، قد يكون مقصرا معي، وقد يكون أهملني، لكنه أبدا لا يستحق ما فعلت به...لا أستمع لشيء مما حولي، ولكن اخترقت أذناي ضوضاء قوية، وصرخات تشتت تفكيري، لألتفت فجأة لأجد سيارة قادمة نحوي بسرعة، تيبست قدماي بالأرض، لا أعلم لِمَاذا لم أتحرك؟؟!! ربما لم ألحق الابتعاد، أو ربما أنا أردت لذلك أن يحدث، وفرحت به، فقد كنت مبتسمة والسيارة تحتضنني، وكأن القدر قد بعثها لي ليريحني من ألم ضميري الذي يقتلني ببطء، ويطهر روحي...

صدمة قوية شعرت بها وكأن عظامي تهشمت...

ثم حلقت في الهواء بخفة، وأخيراً ارتطام قوي بالأرض ... ألم شديد ... لا شيء .....

همهمات بجانبي أيقظتني، فتحت عيناي بصعوبة لأجد زوجي يتحدث إلى الممرضة، وعندما رآني قد استفقت، أتى مسرعاً نحوي، وقال لي : حمدلله على سلامتك لقد قلقنا كثيرا من أجلك..قلت له بخفوت : ماذا حدث؟

قال لي مبتسما : حادث بسيط لا تقلقي لقد طمئننا الطبيب كثيرا وقال بأنك محظوظة جدا.. فبرغم قوة الحادث، إلا أنكِ لم تتأذي كثيرا، فقط كسر بالقدم وبعض الخدوش، ما أقلقنا هو فقدك للوعي منذ يومين...

ربما لم يكن فقدا للوعي، ربما أرادت نفسي أن تظل في سباتاً أبدياً ليتجمد الشعور بداخلي، ويفارقها الشعور بالخزي... وبقينا بالمشفى عدة أيام، لم يفارقني لحظة، كان يتابع عمله بالهاتف فقط لكي يظل بجانبي، يعمل على رعايتي، ويهتم بي، ويقضي كل حاجاتي ليسري الندم كالدم بعروقي ليشعلها، وأنا أرى معاملته لي، حتى عندما عدنا للمنزل كان يقضي ساعات قليلة بالعمل، ويعود يهتم بي، ولم أستغرب هذا الاهتمام المفاجئ

فقد راودتني الذكرى عند إنجابي للطفلين، هو من كان يهتم بي، وعندما كنت أمرض في أي وقت هو من كان بجانبي، لماذا لم أتذكر ذلك من قبل؟؟ لماذا دائما ما كنت أنظر لنواقصه، وأتناسى أفعاله؟؟!! لماذا كنت أرى فقط عيوبه، وأتغاضى عن مميزاته، هو لم يرفض أبدا طلبا لي، لم ينسى أبدا ذكرى تجمعنا، حتى إن لم يكن موجودا، ولم يكن يغضب أبدا إن غفلت أنا عن ذكرى تخصه، كان يهديني أثمن الهدايا، حتى إن لم يكن هناك مناسبة، وكأنه كان يعوضني بهذا عن غيابه، وبدأ شريط الذكريات يمر أمامي، ليسكب الوقود فوق نار ندمي، ليزيدها إشتعالا أكثر وأكثر..

ألغيت حسابي على شبكة التواصل، وغيرت رقم هاتفي لأتخلص من مكالماته المستمرة، وأقطع أي وسيلة للتواصل بيننا، وأنهي علاقتي به تماماً...

عاهدت نفسي بأن أعوض زوجي كل ما فات من شجاراتٍ، شكواي وتمردي الدائم، سأمنحه السعادة التي حرمته منها لسنوات بسبب أنانيتي، اقتربت من الله أكثر،

والتزمت بالصلاة، ودعوته في كل الأوقات، عسى أن يسامحني ويغفر لي ذلتي.... أما أنا فلن أسامح نفسي أبداً...

كان زوجي سعيداً بمعاملتي الجيدة، وكان يمزح بأن الحادث قد أعاد عقلي لمكانه الطبيعي...كانت كلماته تعتصر قلبي وترتد بابتسامة باهتة على شفتاي، وفي أول يوم لنا كزوجين طبيعيين بعدما تماثلت للشفاء، لا.... لم أستطع أبداً التغاضي عن الأمر لقد أشفقت عليه وضعت نفسي بمكانه ...

هل كنت سأقبل لنفسي بأن ينام بين أحضاني، وقد خانني مع أخرى؟؟

لا، بالطبع لن تقبلها نفسي أبدا !!! إذا لماذا أرتضي له ما لا أرضاه لنفسي!!!

لماذا أرتضي له بأن يعيش معي بعدما أهدرت شرفه وكرامته، أنا لم أعد أستحقه !!!

شعرت بالاختناق، قضيت الليل على سجادة الصلاة تبللها دموعي، أستجدي المغفرة من الله بأن يلهمني الصواب، ويرحمني من عذاب ضميري...

وفي الصباح هدأت روحي، واستكانت بعدما حسمت قراري..... قررت الاعتراف له بكل شيء، استيقظ زوجي وهو يداعبني مبتسما، ولا يعلم بأنني أسن كلماتي لأذبحه بها، هادئة، جامدة الملامح، وكأنني لست أنا التي قضت الليل تبكي وتنوح، استعرت قناعاً ثلجياً أخفي خلفه براكين مشاعري الهائجة، وجسدا متصلبا يخفي بداخله قلباً مهترئ من الندم، وينهشه الألم من كل جانب، يزهق روحه وهو مازال على قيد الحياة ، إنه ألم الفقد، وما أدراك ما ألم الفقد... نعم سأفقده... بضع كلمات مسمومة سأطلقهم كالرصاصات بوجه كرامته وكبريائه، سأفقده للأبد.. حاولت إقناع نفسي بالتراجع ولكنها قد حسمت قرارها، قررت أن تقيم عليه حد الوفاء، بالاعتراف بخيانتها، نظر لي واستغرب من جمودي وشحوبي، وقال لي: "ما بكِ" ؟

أطلقت حينها كلمتي سهماً مباشراً نحو قلبه "لقد خنتك"

ابتسم باستغراب يعتقد ني أمزح مزحاً سخيفاً، ومن أين له أن يعلم بأنه ليس سوى اعترافاً حقيراً..وعندما أمعن النظر بملامحي الصلبة وعيناي التي تجمع بين الإصرار والانكسار معاً، أيقن حينها أنه لم يكن أبداً مزاحا، تغيرت ملامحه، تبدلت من عدم الاستيعاب إلى الصدمة، ثم الذهول، ألقى بنفسه على طرف الفراش وكأن قدماه خانتاه، تخلت عنه، ورفضت أن تصلب هامته، وبدأت بإطلاق وابل من سهام كلماتي أغربل بها مشاعره، وأهتك أحاسيسه، وأنثر شظايا رجولته، سردت له كل التفاصيل من البداية حتى النهاية، من الانحدار حتى السقوط..

وعندما انتهيت من سفك كرامته، كان قناعي الثلجي قد ذاب، وبدأت دموعي بالانهمار دون توقف، وملامحي بالانهيار، وتوقفت عن التصنع ..انتظرت ردة فعله...

لكنه لم يفعل شيء.....

كان صامتاً تماماً، فقط ينظر لي تلك النظرة القاتلة التي تخترق صميمي وتعتصر روحي، يعاتبني عتابا صامتاً !!! بالله عليك، ألا تعلم أن أسوأ أنواع العتاب هو عتاب الصمت، فأهون عندي أن تصفعني مراراً وتكرارا، أن تنعتني بأسوأ الأوصاف، أن تكسر عظامي تسحبني من شعري وتلقي بي خارج منزلك.. لكن أرجوك لا تصمت هكذا، فأنت تذبحني بسكين بارد ..وبسرعة البرق قام بخطف مفاتيح سيارته، واختفى من أمامي، وكأنه يريد أن يهرب من هذا المكان الذي تملأه أنفاسي.. انهرت علي ركبتاي أرضاً، أبكيه و أبكي حالي بدونه...

قضيت ليلتي الأولى أبحث عن رائحته بين الأغطية لتختزنها رئتاي، أفتقد همساته، قبلاته، سكوني بين أحضانه...دائماً ما كنت أفتقده، لكنني كنت موقنة بأنه عندما يذهب سيأتي، وعندما يغيب سيحضر... أما الليلة فأعلم أنه فقداً دائما، لن يأتي، ولن يعود..

ما أتعسني، ضحيت بكل ما لدي من أجل بضع ساعات من السعادة الزائفة والنشوة الواهية، خسرت كل شيء من أجل بضع كلمات معسولة خادعة خدعني بها شخص تافه ليصل لما يريد، مؤكد مثلما خدع قبلي الكثيرات، ومازال سيخدع بعدي، سيبحث عن امرأة ضعيفة، غبية مثلي، تخدرها كلماته المدروسة التي يتلاعب بها على أوتار سذاجتها وأنانيتها....

فراغ....حيز كبير من الفراغ منذ تركني، أسبوعين كاملين، لا أعلم عنه أي شيء منذ خرج راكضاً ببيجامة نومه من أمامي ليهرب من مكان تواجدي، أنتظر إخطارا بالطلاق كل يوم لتكتمل مأساتي...حتى دق جرس الباب بإحدى الأيام لتتسارع دقات قلبي لتصدر صوتاً يوازي دقات الجرس.. وبأصابع مرتجفة فتحت الباب، كنت أشعر بأن من وراء الباب سيجلب لي خبرا عنه..

لكني لم أتخيل أن أجده هو بنفسه أمامي..... صدمت، توقفت أنفاسي ولم تكن صدمتي فقط من رؤيته، بل من مظهره أيضاً... ملابسه مبعثرة، ذقنه نامية كثيرا، يبدوأنه لم يحلقها منذ أن رحل، ولم أكن أفضل منه حالا.. فقد كان شعري لا يعلم به إلا الله، وملابسي لم أبدلها منذ أسبوعاً كاملاً، كنت بحالة مزرية، لم ينتظرني لأستفيق من صدمتي، فقد تخطاني ودخل الشقة وأنا أتبعه بنظري وقلبي.... قلبي هوى حتى لامس الأرض.. أغلقت الباب ودلفت أتبعه ببطء، نار الشوق تصفعني صفعاً..وخوفي مما سيحدث كالحمم تسري بعروقي، جلس على الأريكة، وقفت أنظر له، متوقعة الأسوأ.... حتى نطق بعد صمت طويل مر كأنه عاماً من الوجع :

ليس هناك أسهل عندي من بصقك من حياتي، لكني كنت أسأل نفسي طوال الفترة الماضية؟؟ هل هذا حقاً ما سيرضيني، اكتشفت أنه سيرضي كرامتي، لكنه لن يرضي نفسي، وكان علي الاختيار ما بين أن أخسر كرامتي، أو أخسرك، لقد أخطأتِ بحقي خطأ لا يغتفر، لكني أنا أيضاً أخطأت، فقد سعيت وراء المال والنجاح من أجل المستقبل.. ولكنني أثناء بناء المستقبل هدمت الحاضر بيدي، فقد أهملتك وأهملت أبنائي، أنا لا أبرر خطأك، ولكنني أعترف بخطئي، أعلم أنك نادمة ولولا ذلك لما كنتِ اعترفتِ لي بفعلتك، لقد قررت أن أسامحك وأعطيكِ فرصة ثانية من أجل أبنائنا، ومن أجل نفسي، أعلم أنني سأخسر جزء كبير من نفسي ببقائي معك، لكنني سأخسر نفسي كاملة لو بقيت بدونك، لن أنسى بسهولة، أو ربما لن أنسى أبداً، انتِ من عليه أن يلملم أشلاء كرامتي ويداوي جراح قلبي، لم تصدق أذناي ما تسمع، ركضت نحوه، انخفضت علي ركبتاي أمامه، أستجدي ملامحه، لتؤكد لي ما سمعت، هل حقاً ستسامحني؟؟ كيف وأنا لم أسامح نفسي!!

قبلت يديه، احتضنت دموعي ملابسه، رميت نفسي بين ذراعيه، أغلف نزيف روحي بضمادة كرمه...

أنا الآن أحيا فقط لكي أحبه، أعشقه وأسعده كما أسعدني، وهو أيضاً أصبح يغمرنا بحبه ويغلفنا بإهتمامه...

أدعوا الله وأشكره كل يوم على نعمة زوجي حبيبي وقرة عيني...

قد تكون نهايتي سعيدة، لكنني لا أعدكم بنهاية مماثلة إن فعلتم مثلما فعلت أنا، فزوجي هو واحد بالمليون ممن يسامحون، هم نادرون، النهاية دائما ما تكون الخسارة ولا شيء سوى الخسارة....

لذلك فاحذروا من الإغواءات، ولا تنجرفوا وراء أهوائكم

أزيلوا الغبار عن أعينكم لتروا ما بين أيديكم من ماس، وتشعروا بقيمة ما لديكم جيداً .....

*****

هل أنا خائن

وهل أنا خائن ؟؟؟ وهل أنا خائن ؟؟؟ تزوجت بهّا سرّاً دون علم زوجتي، حتى لا أجرحها، ولكّن ماذا كنت سأفعل!!! لقد اعتنقني حبها، واجتاحني عشقها اجتياحاً، لم أستطّع إلا أن أعشقها، وهي أيضاً تبادلني العشقَ ذاته، تعرّفتُ عليها في إحدى مسابقات الطهي العالمية، رأيتها هناك، قابعة في زاوية بعيدة، وحيدة، خائفة، اقتربت منها، تعرفتُ عليها و بخفة ظلي المعهودة أخرجتها من توترها، واختلطت من خلالي بباقي الأشخاص...

ومن يومها بدأت تجمعنا صداقة قوية، تعلّقت بي كثيرا وأضحت لا تفارقني، ثم تدريجياً تطورت مشاعرنا....لم نعترف فعلياً، لكن كلٌ منا كّان يعلمُ جيداً ما يحمله الآخر بداخله...

فزتُ بالمسابقة بكل جدارة.. تحصلت على مبلغ ضخم.. وفرصة عمل بأكبر المطاعم العالمية بإحدى الدول العربية.... استطعت توفير فرصة عمل لها معي بالمطعم، فهيّ طباخة ماهرة، فقدّ استطاعت الوصول لمراحل متقدمة في المسابقة، حينها أرسلتُ إليهّا لتأتي، لبت النداء سريعاً، وتركت كل شيء، وحضرت إليّ، عملت معي، وأصبحنا لا نتفارق داخل العمل أو خارجهُ..

وصلت علاقتنا لمرحلةّ أنني لمّ أعد أستطّيع الابتعاد عنها أو مفارقتها، بلّ لمّ أعد أتنفس بدونها... ولمّ يكّن أمامي سوى الزواجَ منها، أليس هذا حقي شرعاً !!!!!!

فقد أباح الله لي الزواج بأكثر من واحدة... ثم أن أحوالي المادية جيدة جداً وأستطّيع الإنفاق على بيتين...

تزوجتها وعشتُ معهّا عامٌ كاملٌ من السعادة والحب، ولكن لا تسير الرياح كما تشتهي السفن، فحدث ما لم أحسُب لهُ حسابا.....

فقد علمت زوجتي بالأمر، ولا أعلم من أين لها أن تعرف، ولكنها عرفت كلُ شيء، وحينها حدث ما لا يحمد عقباه.....

توقعتُ كلّ شيء إلا أن يتزوج بأخرى، بعد كل ما أعطيته من حب وكل ما فعلته من أجله..

تعرفتُ عليه في المرحلة الجامعية عندما كنت أترك جامعتي الخاصة وأذهب مع أصدقائي لجامعتهم العامة.

رأيته هناك، جذبتني خفة ظله، وشخصيته المميزة، كان الجميع يحبه، حينما يحضر يشعل الأجواء بهجة، وضحك، وحماس، وعندما تحادثنا تحدثت قلوبنا ولم يكف حديثها أبدا، تعلقت به كثيراً، وجمعتنا قصة حب أسطورية لسنوات، تقدم للزواج بي، ولكن والديّ رفضه رفضاً جارحاً مهيناً، كان في نظره فقير نكرة، فكيف يتجرأ ويفكر في الزواج من واحدة مثلي، مؤكد أنه مجنون...

غضبت كثيرا فالفقر أبداً ليس عيباً ولن اجعله يفرق بين قلبينا، حاربت العالم من اجله

وتزوجت به رغم كل شيء، تبرأت مني عائلتي وطردني والديّ.

حزنت، لكنني لم أكترث بهم، فمن حقي أن أختار شريك حياتي، ومن اختاره قلبي.

أقمتُ معه ووالدته في شقة صغيرة بإحدى المناطق الشعبية، مكونة من غرفتين وصالة، لكني كنت أراها جنتي الصغيرة، والعش الذي يجمعني بحبيبي.

بمرور الأيام كانت تسوء أحوالنا المادية أكثر وأكثر، كان لا يكمل أسبوعاً واحداً في عمل ثم يتركه... اضطررت للخروج للعمل رغم صعوبة حملي، ساعدتني صديقتي في العثور على عمل غير مرهق... ومرت السنين على هذا المنوال، أنجبتُ طفلاً وطفلة... كنت أهتم بهم ووالدته، وبه أيضاً بجانب عملي، وهو مازال غير مستقر على عمل، بل وأحيانا يرقد في المنزل بالشهور، لفتني حبه الشديد لمتابعة برامج الطهي، غير أنه يتفنن في اختراع أكلات رائعة، اشتركت له في كورس تعليمي لاحتراف فن الطهي، وبعد حرب كبيرة قمت بشنها أنا ووالدته ذهب وحصل على شهادة تؤهله للعمل في هذا المجال، ومن خلال بعض معارفي أوجدت له عملا في فندق كبير، وسمعت بعدها عن مسابقة عالمية شاركت له فيها دون علمه، حتّى أقنعته بعد عناء، فقد كان رافضاً للفكرة تماما، فهو لن يستطيع مواجهة المحترفين المتقدمين أمامه، وقد كان عند حسن ظني به وفاز بالمسابقة، حينها

حصل على مبلغ مالي كبير ووظيفة الأحلام، وكان من المفترض أن يسافر ثم يبعث لنا للحاق به، لكنه بعد ذلك رفض ذهابنا دون سبب مقنع، وأخذ يماطلني شهراً بعد آخر، حتّى مر عامٌ كامل لا يجمعنا سوى مكالمات هاتفية متباعدة، ومبلغ يرسله لنا نهاية كلّ شهر.

كان الغضب يعتريني أحياناً ثمّ أهدئ نفسي وأعاتبها على ثورتها، فهل اللومة لإنشغاله عنا بعمله، و نجاحه فيه، أليس هذا ما كنت اتمناه يوماً، وفي النهاية هو يفعل كل هذا من أجلنا... وأعود مرة أخرى ألتمس له العذر، وأصدق كل أعذاره الواهية.

حتّى هاتفتني صديقة لي ذات صباح، لتخبرني أنه متزوج من أخرى....

علمتّ زوجتي بزواجي... توقعتُ أنّ تثور تصرخ تنتحب، تهينني وتهددني مطالبة إياي ترك الأخرى، تعايرني بما فعلت من أجلي.

لكنها لم تفعل أي شيء من ذلك، بل طلبت الطلاق بكل هدوء وكبرياء.

كم كنت غبي! لأنني توقعت رؤية ضعفها، فهي أقوى من أن يهزها فراقي، أو تكسرها فعلتي، دائماً ما كانت قوية، وربما كانت تلك مشكلتي معها، لم تحتاجني يوماً، كانت تهتم بنفسها بالأولاد وبي أيضاً، تحمل مسئولية البيت أكمله على كاهلها، لم تطالبني بأي شيء يوماً، حتّى أنهّا لمّ تطلب منيّ البحث يوماً عن عمل، هي من كانت توجد لي عملاً بعد آخر، كنتُ أعلمُ أنهّا تريدني أن أعمل وأنجح بعملي فقط حتّى لا تشعر بالندم من زواجها منيّ وليس من أجل اعتمادها عليّ، واحتياجها لي، لمّ تتذمر يوماً أو تعاتبني من تركي لكل عمل تحضره لي، ولمّ تتذمر أيضاً من تلك الحياة البائسة التي أقدمها لهّا، لكني كنت أعلم جيداً أنهّا نادمة ندماً شديدا من زواجها بيّ لكن كبريائها لن يسمح لهّا بالاعتراف، أما زوجتي الأخرى فهي شيء آخر على النقيض تماماً، كم هيّ ضعيفة فيّ، وكم تشعرني بالاحتياج، تعتمد عليّ كليا، وأعلمُ جيداً أنهّا لن تستطيع العيش بدوني لحظة واحدة.

وافقت على طلبها و طلقتها، فأنا لن أستطيع أن أجادلها أو أثنيها عن طلبها أبداً، فهي حينما تقرر فعل شيء لا يستطيع مخلوق على الأرض أن يؤثر على قرارها.

حينما أرادت الزواج منيّ فعلتها رغم كل شيء، وحينما تقرر تركي لن يثنيها شيء.

لستُ خائفاً على أبنائي، أعلمُ أنهّا ستهتم بهم جيداً كما كانت تفعل دائماً، أما أنا فمن حقيّ أن أسير في طريق سعادتي وأختار من أشعرُ معهّا بالسعادة والحب.

أما هيّ فأعلمُ أنهّا بيّ أو بدوني سوف تكون بخير.

مرت الأيام بعد ذلك ولكن ليس مثلما توقعت بل بدأت رحلتي نحو الهاوية.....

قالت لي: " إنه متزوج من أخرى "

صرختُ فيها زوجي لا يمكن أن يفعل ذلك معيّ، لقد التبس عليكِ الأمر، ربما رأيتِ شخصاً يشبهه.

جاوبتني بأنهّا تعلمُ كمّ أ حبهُ بجنون، وكانت تعرف بأنّني لن أصدقها لذا فقط التقطتّ صورة ومقطع فيديو أيضاً وبعثت بهم لي.

انتظرت... عضلاتي متشنجة متأهبة وكأنها في وضع دفاعً عن النفس، عقلي رافض بثقة وإصرار، قلبي مرتجف خائف منكمش بين الضلوع.

وصلتّ الصورة فتحتها بيدٍ مرتجفة لتتسع عيناي وتَضربُ بقلبي صاعقة، لمّ تكذب ولمّ يلتبس عليهّا الأمر أنه هو.....

فتحتُ الفيديو سريعاً وكأنّني أبحثُ عن شيءٍ يكذب ما رأيته، أو أي أمل أنقذُ به انهيار عالمي الذيّ تعبتُ كثيراً في بنائهُ، لكنني لمّ أجد سوى الألم.....

رأيته يطعمها بيده، تعَبث أصابعهُ بخصلاَتها، ينظرُ لها بعشق، يفعل معها كل ما كان يفعله معيّ قبلَ زواجنا.

شعرتُ بالأرض تميد بيّ بزلزالٌ يضربُ عالمي، بحياتي تنهار من تحت أقدامي، سقطتُ في هوةٌ عميقة، وسقطتّ أحلامي حولي تحاصرني من كل اتجاه، أفقت من غيبوبتي مدركة للواقع تماماً وبما فعل بيّ.. تتأوه روحي بخفوت..تئن كرامتي بلوعة وانكسار. يدندن قلبي بآهات الوجع ...آآآه وألفُ آآآه تعزفُها نبضاتي بشجن حزين.. لن أدعي القوة و أرتدي قناع الصمود، فأنا الآن أشعر بالضعف والوهن، بالانهيار،

سأستسلم لوجعي، لبعض الوقت، حتّى أتماثل للشفاء، و أعطي الفرصة لنفسي كاملةً لتستكين أوجاعها... تركتُ عملي.. مكثتُ مع صغاريّ.. ارتميتُّ بين أحضانهم، فأنا الآن من أحتاجهم. من يريد التعلق بهم ليشعر بالأمان، شهراً كاملاً أستمد قوتيّ من برائتهم، أداوي قلبي بترياق حبهم، أشفي صقيع روحي بدفء حنانهم.

استعدت روحي وقوتي من جديد، وبدأت أرسُم خارطةّ حياتي من نقطة الصفر، لكن أول شيء كان عليّ فعلهُ لأطوي صفحة الماضي هو الحصول على الطلاق، وقد كان.

بدأت أفكر في العمل، لن أعود لعملي القديم، أُريد أن أفعلُ شيئاً أُحبه، أفجر فيه كل طاقتي ووقتي وحماسي.. قررت أن أتبع هوسي القديم في تصميم الأزياء، فقدحصلت على جائزة أفضل تصميم منذ سنوات طويلة في مسابقة أقامتها الجامعة، وكان الجميع يشيد دائماً بذوقي الرائع في تنسيق الملابس، لكنني لم أُنفذ بشكل عملي من قبل لذا بحثت عن كورس تعليمي ليثقلُ موهبتي، وتحصلتُ عليه، ثم استأجرت متجرا صغيراً، وبدأتُ التواصل مع صديقاتي الأثرياء القدامى، حدثتهم عن عملي ودعوتهم بالحضور، لكنهم حين أتوا نظروا لمتجري بازدراء، لكنني شتت انتباههم بتصاميمي وأزيائي الرائعة فجذبت جل اهتمامهم، أنا أعلمُ جيداً تلك الطبقة وكيف يفكرون! فقد كنت منهم ذات يوم قبل أن أتنازل عن ثرائي برغبتي، هم دائما ما يبحثون عن التميز والاختلاف، هذا ما

حققته أنا لهم... واحدة حدثت أخرى، وواحدة أتت بأخريات حتى امتلأ متجري الصغير وذاع صيتي وبدأت الأموال تنهمرعلي من كل مكان، فهم يدفعون الكثير طالما أرضي رغباتهم وأذواقهم.

استأجرت متجراً كبيراً في حي راقي، واستعنت بعدد من الفتيات ذوي الخبرات، واستأجرت شقة كبيرة بجانبه.. ومنذ علمَ الرزق عنواني لمّ يضيع الطريق أبدا، وكأن الله يعوضني عن خسارتي لقلبي بنجاحي في عملي، ويفتح لي أبواب الرزق على اتساعها من حيث لا أحتسب...

أصدقكم القول: أنا نفسي لا أصدق ما حدث معي، ففي خلال عامٌ ونصف فقط أصبحتُ أمتلك الكثير والكثير واسما لا يستهان به.. امتلأت نفسي بالرضا ولم أعد أريد شيءٍ بعد.

حتى أتى هذا اليوم الذي وقعت فيه باختبار صعب، وكان عليّ أن أتخذ القرار...

بعدما طلقتُ زوجتي قررت أنّ أعيش حياتي بسعادة، رميت بكل شيء وراء ظهري غير مكترث بأحد، وبمنتهي الأنانية تابعت حياتي، أعيش لزوجتي فقط وتعيشُ هي ليّ وكأنّها هي من أملك في تلك الحياة وليس لي غيرها، وعندما علمتُ بحملها كنت أسعد إنسان بالعالم، وكأنّني لم أنجب أطفالاً من قبل، لم أسمع صوتهم منذ شهور، ولا أعلمُ عنهم شيئاً.

عشتُ لاهياً بحياتي ونجاحي، و طفلي المنتظر، وزوجتي التي تركتُ كل شيء لأجلها، حتّى شاء القدر أن يعطيني درساً قاسياً..

ففي إحدى الليالي كنا نحتفل بميلادها مع بعضٌ من الأصدقاء الجدد حتّى منتصف الليل، ونحن عائدين في السيارة نضحك ونلهو ظهرت سيارة أمامي من العدم، حاولت تفاديها فانحرفت سيارتنا عن الطريق، واصطدمت بالسور الحديدي.

نُقلنا حينها للمشفى وأصيبت قدمي اليمنى إصابة بالغة، أما زوجتي فقد فقدت جنينها.....

مكثتُ في المشفى لشهور، أجريتُ العديد من العمليات الجراحية لقدمي، فقد تأذيتُ كثيراً، أنفقت كل ما لدي، وعدتُ المنزل خالي الوفاض، زوجتي هي من تعيلني وتتكفل بعلاجي، ولم تكن تفعل

ذلك بصمت، بل كانت تعبر عنه بأقوالها وأفعالها تلومني لخسارة جنينها، وتلومني على عجزي وتعايرني بعلتي.

وبعد انتهاء مرحلة العلاج الطبيعي لم يحدث أي فارق، ولم أستّطع السير أيضاً، نصحني الطبيب بإجراء عملية جراحية خارج البلاد، لتعود قدمي مرة أخرى لحالتها الطبيعية.

لم يكن يعلم أنني لم أعد أمتلك أي شيء، أضحت حالتي النفسية سيئة للغاية ولم أجد أي دعم أو مساندة من زوجتي، بل كانّت دائمة الغضب والصراخ، لم تخلو أيامنا من المشاحنات والمشاجرات وقذف بعضنا بالاتهامات، صارت حياتنا جحيم حتّى رحلت عنيّ ذات يوم... تركتني وراء ظهرها ولم تنظر للخلف، أصبحتُ وحيداً، عاجزاً دون عمل أو مال، ساعدني بعض الأصدقاء للعودة للوطن.

عدتُ لشقتنا الصغيرة، عدتُ مكسوراً ذليلاً، عندما تأتيك المصائب تباعاً يحدث أنّ تجلس مع نفسك وتتذكر ذنوبك التي اقترفتها وكنت تعتقدها حقا مشروعاً، أخطائك التي أوصلتك لما أنت فيه الآن من بؤس، وكنت تعتقد بغباء أن تتداركها الأيام.

أتت أمي للمكوث معيّ، أمي التي لم تتركها طليقتي مثلما فعل ابنها، راعتها واهتمت بها عندما كنت أنا لا أسأل عنها ولا أهتمُ لأخبارها، وكأن ما حدث لي هو خطاب شديد اللهجة من الله على تقصيري في حق أمي وأبنائي وما فعلته مع زوجتي.

سعدتُ كثيراً لما وصلت إليه وكأن الله رفعها وخسف الأرض بي، وأستحقُ بجدارة ما حدث، فأنا لم أحافظ على النعم التي أعطاها الله لي.

لم يفاجئني أبداً نجاحها، فهي امرأة قوية تستّطيع فعلُ أي شيء تريده، لكن ما فاجأني هو ما حدث بعد ذلك.....

هو:

استيقظت من نومي لأجد زوجتي السابقة تمدُ ليّ يدها، تساعدني على النهوض، ظننت أنّني أحلمُ، أو ربما أهذي، مددتُ يدي أتلمس كفها ليؤكد لي أنها حقاً تتجسد أمامي نظرتْ في عمق عيني بكبرياء، وقالت: " بحثتُ من فترة عن طبيباً ليجري لك الجراحة وعلمت اليوم أنّ هناك طبيب أجنبي سيحضر قريبا لإجراء جراحات مشابهة لحالتك، وقدّ حجزتُ لك في المشفى، وتكفلتُ بكافة المصاريف "

تجمدت الدموع في عيناي، هل حقاً ستفعل ذلك من أجلي؟.. ولما بعد كل ما فعلتُ معها !!!

سألتها بانكسار لم تفعلي ذلك معي؟ قالت " أنتَ والد أبنائي وستظل دائماً وسوف أساعدك دوماً طالما أستطيع "

أجريتُ الجراحة ولمّ تفارقني وأبنائي يوماً حتى تماثلت الشفاء تماماً.

تساءلت دوماً ..... وهل أنا خائن ؟؟؟

نعم يا سادة أنا خائن وبكل جدارة، خنتُ زوجتي التي أحبتني واختارت أنّ تُكمل حياتها معيّ وتركت العالم من أجلي، أحبتني بكل عيوبي، تحملتني بكل سوءاتي، لم أفعل شيء من أجلها يوماً، وهي فعلت من أجلي كل شيء، لم أقُم بأي عمل لأحافظ عليها، وهي فعلتّ المستحيل لتحافظ على حبنّا وبيتنّا، لم تتذمر يوماً أوتعاتبني على إهمالي، بل أهدتني أجمل طفلين في الوجود، ساعدتني بكل قوتها وإصرارها حتى وقفتُ على قدماي ونجحت، وأول شيء فعلته هو التمرد عليها و على حبها تحت مسمى* الشرع حلل*

والحقيقة هي أنني لا أفقه من الشرع إلا تلك الجملة استخدمتها لأشرع بهّا خيانتي وأُرضي نفسيتي المريضة وشعوري بالنقص، شعوري أنها هي الأفضل، هي الأقوى، ولم أنظر لما هو أعمق من ذلك،

كم حبها وعشقها لي، لأُثبت لنفسي قبل الجميع كمّ أنا ضعيف وسيء، ولا أستحق كل ما فعلت من أجلي، وبرغم كل ما فعلته معها هي من وقفت بجانبي و أعادتني للحياة مرة أخرى.

آآه لو استّطيع أنّ أخُر تحت قدميها مطالباً السماح، ولكنّ هيهات فهل يمكن أنّ تغفر لي يوماً.....

هي:

علمتُ بما حدث له بإصابته، وتخلي زوجته عنه، وبعودته البائسة، وهل تصدقوا إنّ قلتُ لكم أني لم أشمت، لم أتشفى، بل على العكس تماما، لقد حزنت كثيراً من أجله.

وضعتُ نفسي في اختباراً صعباً وسألتها.... إنّ كنتِ تستطيعين مساعدته فهل ستفعلينها ؟؟؟

توقعتُ حرباً شرسة بين عقلي وقلبي لكنّني تفاجأت اتحادهما معا والرد السريع بالموافقة.

لذا قررت مساعدته، بحثتُ له عن طبيباً وتكفلتُ بنفقة العملية الجراحية والعلاج حتى أمتثل للشفاء... كنت أرى الندم ظاهراً على محياه، وكم تطالبني عيناه بالسماح.

سأكذب إنّ قلتُ أنّني كرهته يوماً، لكنّني أملك القوة الكافية لأعترف أنّني لم أتوقف عن حبه، وبأن عشقه مازال يسري بين كرات الدم في العروق....

تسائلتُ دوما هل يمكن للحب أن يتحول كرهاً ؟

لا أعتقد أنّ من يحب يستطيع أنّ يكره مهما حدث، أو أنّ ينتزع العشقُ من قلبهُ بعدّ أنّ سكن جدرانه وتشبث بها..... أما إنّ تحدثنا عن السماح فلن أغفر له ما فعله معي،

ولن أسامحه أبداً..... وهل كنتم تريدون مني أنّ أسامحه !!!!

*****

ليلة زفاف

إنها ليلة زفافي، المفترض أنَّ تكون أسعد ليلة بحياتي، تحملُ لي من اللحظات أجمل ما عشته يوما، لكن ما أشعرُ به هو العكس تماما، ففي الحقيقة هي أتعس ليلةٍ أقضيها بعمري، أو كما أدعوها الكابوس...

عروسٌ أنا في أبهى طلتي بفستاني الأبيض المنسدل على جسدي الممشوق الذي يزيده روعة، يحدد وجهي المزين بإتقان حجابٌ وقوراً ليضع كل مفاهيم الجمال بين قوسين، لتُسرق قلوب كلُ مَن تقع عينه عليّ وتتعلق نظراتهم في ذهول ببهاء طلتي وروعة ملامحي وأسمعُ همساتهم:

يا الله تبدو ملاكً ينيرُ جمالها الكون، كم تبدو جميلة، هي ليست امرأة هي حورية من الجنة.. أبتسم بسخرية آآآآه لو تعلمون كم أكره هذا الجمال، وكم كنتُ أتمنى أنّ أكون فتاةٌ عادية، جمالُها عادي، وطلتُها عادية، وتعلمُ بداخلها إنها ليست سوى فتاةٌ عادية.

أتظاهر بالهدوء والسكينة، أصطنع الابتسامات، أما داخلي فكان يحكي شيءٌ آخر

خوف وغضبٌ أسود يجتاحُني، أسبُ وألعن نفسي وألعن الظروف، ترتجفُ أوصالي وكلُ خلجاتي، أختطف النظرات بطرف عيني علي الذي يجلس بجواري، هذا العريس الأنيق المتدين الذي يُرميني بنظرات خجلة رغم أنّني أصبحتُ زوجته، الذي أقدم على الزواج من فتاة منتسبة لعائلة محترمة ومتدينة..

ويشهد الجميع للعروس بسمو أخلاقها والتزامها، أما عن جمالها فشيء آخر يحكي عنه البعيد قبل القريب.. فسوف يتزين منزله بأجمل ماسة، بقطعةٌ من الجمال لا تقدر بثمن... كم من العيون والقلوب تحسده في تلك اللحظة على آية الجمال التي اقتناها، ولا يعلمون كم تعيسُ حظ هو...

انتهى العرس سريعاً، أو هكذا بدا لي، لتتسارع نبضاتي، ويهوي قلبي ليلامس أقدامي، أمسك بيدي المرتجفة، ورافقتنا العائلة والأقارب حتى السيارة.

ركبتُ السيارة بجواره ليزداد ارتجافي بقوة ويطفو على جسدي كالشاه المساقة لذبحها، شعرتُ بيده تقترب لف ذراعه حول ظهري وأمسك بكتفي قربني إليه، قبل جبيني وربت برفق على كفي، وابتسم لي بحنان وكأنّه يطمئنني، يعتقدُ أني خائفة مما سيحدث بيننا بعد قليل.

يخترق بسيارته الطريق بلهفة عاشق ورغبة رجل، لم يعد يفصله عن امرأته إلا طريق يريدُ أنّ يجتازه بلمح البصر، وكلما اقتربنا من المنزل تباعد الهواء عن أنفاسي، وأحاول التقاطه بأعجوبة.

وصلنا المنزل الرائع ذو الحديقة المذهلة بالحي الراقي، هو حقاً منزل فخم يقدمه الطبيب المرموق لزوجته، ليليقُ بروعتها ويعادل جمالها، ترجلتُ من السيارة، تتسارع أنفاسي لأعلى معدلاتها.. أمسك بذيل فستاني يساعدني هو على صعود الدرجات الواسعة، فتح الباب لي قائلاً : مرحباً بك في منزلك يا جميلة الجميلات..

صعدنا الدرج، أنا في المقدمة وهو مازال يحملُ لي ذيل فستاني، أشعرُ بنظراته تخترقني، أشعرُ برغبته تحرقُني، تتلعثم أفكاري ولا أستطيع السيطرة على خفقاتي الهاربة. دلفنا لغرفتنا، أغلق الباب ثمّ جذبني بقوة من ذراعي لأرتطم بصدره العريض، أسقط شفتيه علي شفتي يقبلُني بشغف، قبلة لم أعتقدّ أنّ لها وجود سوى حروفاً تعانقُ سطور رواية ما صنعها خيالٌ خصبٌ لكاتب أو مشهد تمثيلي بأحد الأفلام.. لكنّني اكتشفت فقط في تلك اللحظة بأنها حقيقية فقد أُصبتُ بغيبوبة مؤقتة، انفصلتُ عن العالم أنظُر إليه ولا أستطيع التحرك ولا الرمش، ابتسم هو من حالي، جذب كفي برفق ليسيرُ بي أوقفني بالقرب من الفراش وبدأ يخلع ملابسه وهو يُرميني بنظرات الشوق واللهفة ويقول : لا أعلمُ كيف لامرأةٌ أنّ تحمل كل هذا السحرُ والجمال؟

ثم تنهد وأكمل قائلا: طوال حياتي دوماً ما كنت أدافع عن الحرية، ولم أكُن أعلمُ أن نظرة واحدة إليكِ كافية لتوقع بي أسيراً، وكم عشقتُ أسري بين يديكِ.

اقترب مني لتفارقُني أنفاسي تلك المرة وترفض أنّ تعود لي مجدداً، أمسك بحمالات فستاني الرقيقة ينزلها ببطء، وضعتُ كفي على أصابعه لأوقفه عما يفعل همس في أذني لتدغدغني أنفاسه الحارة وتقضي على آخر قطرة صمودٍ لدي، لقد آن الأوان حتى نخلع عنكِ هذا الفستان ذو الذيل الطويل الذي أنهكني طوال الليل، لا أعلمُ حقا ما فائدة الذيل .

أزاح خصلتي جانباً بإصبعه ليستطيع النظر في عيني، أمسكَ بكتفي ليحد من ارتجافي وهمس لي ليمدني بالثقة :لا تخافي مني.

حينها لم أستطع التحكم في نفسي أكثر أبعدت يديه عني بقوة وهربت عنه بعيدا، أوليه ظهري لأطلق العنان لدمعتي الحبيسة، لم يعد هناك مجال للهروب ولم يعد هناك بداً من مصارحته طمعاً في كرم أخلاقه الذي عايشته طوال الفترة الماضية، لكنّني متخوفة فهو في النهاية رجل ككل الرجال، ورد فعله غير مضمون سألني بنبرة قلقة :

ما بكِ ماذا هناك !

التفتُ إليه أواجه عيناه لأفجر قنبلتي وجهاً لوجه، نطقت بسرعة قبل أنّ تهرب شجاعتي بين لحظة وأخرى :

.....أنا لستُ فتاة.....

تجمدت ملامحه مصدوماً مذهولاً، لم يتحرك لدقائق من مكانه فقط ظل ينظر لي تلك النظرة الجامدة وكأنّ عقله يجد صعوبة في ترجمة ما قلت، تحرك أخيرا تجاهي ببطء، ارتعبت، رجعتُ للخلف بضع خطواتٍ، تداركهم بخطوة واحدة أصبح أمامي مباشرة، أمسك ذراعي بقسوة وقال من بين أسنانه بنبرة أسمعها منه للمرة الأولى : أخبريني كل شيء... كل شيء.

أتأتأت وأتلعثم وأشهق كل حين وأنا أسرد له كل التفاصيل الحقيرة ودموعي ترافق كل حرفٍ يخرج من فمي.. حتَّى انتهيت، حينها نظر لي باشمئزاز ثم صفعني كفاً قوياً، أوقعني أرضاً وخرج هارباً

من الغرفة التي كاد أنّ يطير للوصول إليها منذ قليل، اعتدلتُ جالسة ألملمُ الذيل الطويل، أمسح دموعي الملطخة ببقايا الكحل الذي شوه ملامحي، تراودني الذكريات أغمضتُ عيني بقوة ليعود الزمن بي سنوات حينما بدأ كل شيء..

كنتُ فتاةٌ صغيرة وكنتُ أرى نظرات الرجال لي، وكم عشقت تلك النظرات التي تخبرني كم أنّا جميلة، بل رائعة الجمال، حين كبرتُ أصبحت هوايتي امتلاك قلب كل من تقع عينه عليّ، وبملابس فصلت خصيصاً لتظهر جمال الجسد الذي تحويه، لم يكن الأمر صعب، فبنظرات سريعة وابتسامة ساحرة، وقعت مئات القلوب أسرى بين يدي، وكلما زاد عددهم زاد غروري وإحساسي بالعظمة، وبأنّني أفضل وأجمل من كل النساء، كنت أتلاعب بمشاعر أي شاب يقترب مني حتى أتيقن أنّ عشقي يسري في عروقه، ثم أتركه بقلبٍ منفطر، ولكم تشاجرتُ مع إخوتي بسبب ملابسي وزينتي المبالغ فيها، وحتى أتقي شر المشاكل التي قد تكلفني العزل عن العالم الخارجي والبقاء في المنزل، كنت أستمع لهم ولنصائحهم بصدرٍ رحب وأفعلُ ما يقولون تماما، أرتدي قميصاً فضفاضاً فوق ملابسي، وأقلل من زينتي كثيراً وأخرج على ابتسامتهم الراضية، ثمّ أذهب لإحدى صديقاتي، أخلع عني القميص الساتر وأُكملُ زينتي وأذهبُ سعيدة بانتصاري بفعلُ ما أريد، وأبدأ مجدداً بجمع النظرات التي تعزز من غروري.. وكم تراهنا وأصدقائي على عدم استطاعتي على الإيقاع ببعض الشباب الذين لم يرفعوا عينهم بفتاة يوما، ولكن بحديث لا يتجاوز الدقيقة وعدة نظرات تعلمُ وجهتُها يقضى الأمر وأفوز بجدارة، لم أسعد حينها بالرهان بل بلذة شعوري أنّني لا أُقاوم، حتَّى أتى اليوم الذي تسلل فيه رامي لمجموعتنا، لمّ يكن يماثلنا العمر أو يدرس في الجامعة معنا، هو فقط كان يأتي لزيارة أصدقاء له لم ينتهوا بعد، كان يكبُرني بسبع سنوات، ولم يكن يأتي كثيرا إلا عندما رآني طلب منهم أنّ يتعرف بي، ومن حينها وأصبح يأتي كلُّ يوم، كان شاباً وسيماً وأنيقاً، يمتلك سيارة فارهة أحدث موديل، علمتُ من أصدقائه أنّه من عائلة ثرية، وأيضا زير نساء.

تعاملتُ معه بحذر وبتجاهل كان يفعل المستحيل ليتقرب مني، يصادق كل أصدقائي ليبقى جانبي، وكلما اقترب هو ابتعدت أنا، وكلما عاملته بلا مبالاة زاد تعلقه بي، كان ينفق الكثير لمحاولة إرضائي، يدعو الجميع للخروج لأكون أنا حاضرة بينهم، كنتُ سعيدة جدا بما يفعله من أجلي، لكنّني كنتُ حريصة تماما على عدم إظهار إعجابي هذا، وحافظت على عدم مبالاتي وبرودي التام تجاهه لأنّني كنتُ أعلمُ جيدا أنّ واحداً مثله لن يستسلم بسهولة، يريدُ أنّ يوقعني في شركهُ، ولا يعلمُ أنَّ عيني هي مصيدة الرجال... حينما يئس أخيرا من عدم إبداءِ لأي مشاعر تجاهه، أتى هو لي راضخاً مستسلماً معترفاً بحبه بل بعشقه الكبير، الذي وصفه بأنّه عشقٌ يوازي السماء بنجومها وكواكبها وأجرامها، فرحتُ كثيراً، فقد ربحتُ كعادتي وتلك المرة ليس أيُّ شخص بل شخصاً اعتاد التلاعب بالقلوب، فتلاعبت أنَّا بقلبه واستقطبت قلبه ومشاعره نحوي. وفي ذات الوقت شعرتُ بالضيق، ولا أعلمُ لماذا هل لأن اعترافه يعني نقطة في آخر السطر وكتابة كلمة النهاية بالخط العريض أسفل الصفحة، ولكن ما الذي قد يحزنني في شيء كهذا؟؟ إلا إذا تورطت مشاعري أنَّا أيضا ولم أفز كما اعتقدت، بل وقعت في المحظور... لم أهتمُ كثيراً بتساؤلاتي وبما يدور في خلدي، رفضت حبه بقوة ليبتعد، لكنه لمّ يستسلم، بل طلب مني يائساً بأنّ أُبقي على صداقتنا ليبقى خيطاً يربطني، به فخروجي من حياته يعني انتهائها، راقتني فكرة الصداقة لاقت ترحيباً داخلي مني، وكأنّ نفسي رافضة لفكرة الفراق، ووجدت العزاء في مصطلح الصداقة..بدأت رحلة صداقتنا، في البداية كنت واثقة جداً في نفسي وأتحكم جيدا في قراراتي، تواجدنا دائما كان ضمن الأصدقاء، وخروجنا كان برفقتهم، ثم بدأت مشاعري في التورط تدريجياً، فقدت السيطرة وبدأت رحلة التنازلات، خروجنا معا المرة الأولى كان مصادفة ثم أصبح عادة، كنا نقضي بالساعات يوميا معا نذهبُ معا لأجمل الأماكن، ينفقُ عليَّ ببذخ، يحضر لي كلُّ ما أشاء، ويغدقُني بالهدايا، ظلت علاقتنا مستقرة لفترة طويلة على هذا المنوال حتَّى أتى يوم حاول فيه أنّ يقبلُني وهو يلبسُني سلسالٍ ذهبي أحضره لي، غضبتُ

كثيرا ورميتُ السلسال بوجهه، تركته وذهبت، رفضت كل اعتذاراته، حتَّى سامحته في النهاية وتعاطفتُ مع استجدائه المستمر الذي لا نهاية له، على وعدٍ منه أنّ ما حدث لن يتكرر مرة ثانية... وعادت علاقتنا مجدداً مرتدية ثوب الصداقة الظاهرية، أما كلينا فكان يعلمُ جيداً ما تحمله أعماقنا، بالأخص أنا كنتُ واثقة تمام الثقة من حبه وما يحمله قلبه من عشقٌ لي، حتَّى أتى اليوم الذي سقطت فيه كل الادعاءات وظهرت فيه الحقيقة كاملة، اليوم الذي تداعت فيه جدران الثقة والغرور، وتُركت روحي معلقة خاوية بلا مأوى حين..... صوتٌ قويّ أيقظني وأعادني للعالم بعد انفصالي التام عنه وسقوطي في بئر الذكريات المظلمة، يبدو صوت البوابة الخارجية، وسيارة تعبر المنزل من خلالها، انتفضتُ واقفة بصعوبة أجرُ قدماي ومن خلفهم ذيل فستاني، دخلت الحمام، نزعتُ عني الفستان ونظفت وجهي الذي أصبح كاللوحة التي تناثرت فوقها الألوان، سحبتُ الدبابيس الماسية التي تمسكُ بتسريحتي، وألقيت بهم، ارتديت الفستان المعد للصباحية واصطدمت بوجهي في المرآة فقد تركت الصفعة أثراً كبيراً على وجنتي فبشرتي البيضاء كانت شديدة الاحمرار ومتورمة، حاولتُ إخفاء الأثر بمساحيق التجميل بقدر استطاعتي وأطلقتُ شعري، ونثرت بضع خصلات فوق وجهي حتى لا يلاحظ أحد عليه شيء...جلستُ فوق الكرسي أضم ركبتاي المرتجفتان وأربت عليهما، وأتسائل يا ترى ماذا ستفعل يا أدهم؟

هل ستخبرهم بالحقيقة وتفضحني !! أم ستكون عند حسن ظني بك وبكرم أخلاقك؟؟ أخذت الأفكار تؤرجحني ما بين السماءِ والأرض، حتَّى سمعتُ دقاً على باب الغرفة.. انتفضت ثمّ قلتُ بصوتٍ متذبذب مرتجف : تفضل....

ظهرت والدتي من وراء الباب، ومن وراءها حماتي، أخذت تنثر الزغاريد المتتالية احتضنتني، وقبلتني وهي تتساءل بلهفة عما حدث أمس؟؟ سكتت فجأة وانطفأت فرحتُها حين لاحظت وجهي..

رفعت خصلاتي وشهقت قائلة : ماذا حدث لوجهك؟

أخبرتها :لا شيء لقد تعثرت في فستاني ووقعتُ على الدرج وارتطمت وجنتي بإحدي الدرجات..

قالت :كاذبة، تلك صفعة هو من فعل بكِ ذلك، اعترضت حماتي بقوة : لا ابني تربية يدي لا يمكن أنّ تُرتفع يده على امرأة أبدا فما بالك بعروسه.

ردت أمي بغضب : إذاً فسري لي سرُّ هيئتها؟؟؟

حينها دخل هو الغرفة، تجمدت قدماي وارتجفت أوصالي ينظرُ لي نظرة تجعلني أتوقع الأسوأ

هل يا تُرى سيخبرهم الآن؟

هاجمته أمي بسؤالها : هل صفعتُ ابنتي؟

رد عليها بكل برود : نعم لقد صفعتها.

قالت أمي بغضب : لمَ!

شحب وجهي وهربت الدماء من عروقي، صرتُ أقف بينهم كالشبح جاحظة العينين، أنظر إليه وقد توقف قلبي عن الخفق تماما، وامتنعت أنفاسي من الخروج.. ظلت مختبئة داخلي متأهبة سقوط الجدران فوقي، وتوقف عقلي عن التفكير، أصابه التبلد، منتظر فقط أن تقلب الدنيا رأسا على عقب، حاصرت عيناه عيناي وقال : لأنها منعت نفسها عني .. بين لحظة وأخرى عادت رئتيّ للعمل، سحبتُ نفساً عميقاً كمن كان يغرق في أعماق البحر وصعد في الهواء فجأة، نفساً أعاد الحياة لكل أعضائي، خفق قلبي مرة أخرى وضخ الدم في العروق، اختفى شحوبي، وتحركت عضلاتي المتيبسة وكأنّني كنتُ في رحلة قصيرة إلى الموت وعدت منها للحياة مجدداً.

استشاطت أمّي غضبا وضربت والدته بكفها على صدرها، عاتبته : أنت يا أدهم تفعل ذلك؟ تمتد يدك على عروسك!! والله لا أصدق.

بعثرت أمّي بخصلاتي على وجهي، وقالت من بين أسنانها : اخفي وجهك جيدا، فلو رآك والدّك هكذا سيقسم على أخذك معه، وسحبتني خلفها، لم أصدّق أنّ أدهم فعل ذلك من أجلي، وضع نفسه في موضع الاتهام ليُخفي الحقيقة.

كانت أمّي تواسيني طوال رحلتنا إلى أسفل وأنّا عقلي في مكان آخر، هل سيصمد أدهم في مواجهة والدّته؟؟ ألن يضعف من عتابها ولومها له ويخبرها الحقيقة ليتلاشى غضبها؟؟ أنا أعلمُ كم يحبها ويسعي لإرضائها.

نزلوا بعد دقائق، تبعتني والدته عندما ذهبت لأحضر الشوكولا، زفرتُ نفسا مرتجفاً حين نادتني باسمي، التفت إليها أخفضت عيني أرضاً فباغتتني بحضنٍ حنون وربتت على ظهري قائلة بأسف : اقبلي اعتذاري يا نور على ما حدّث، والتمسي له العذر فهو لا يمتلك أيّ خبرة بالنساء، هو لم يقم أيّ علاقة نسائية من قبل، دائما ما كانّ يقول بأنّني أحتفظ بعذرية مشاعري للمرأة التي سأتزوجُها وتكون حلالي، هي فقط من تستحق تلك المشاعر، فيبدو أنه كان متحمساً جداً أمس ولمّ يستطع السيطرة على نفسه، عندما تعاشريه وتعرفيه جيداً ستتأكدين كم هو إنسان رائع، طيب، وحنون ولا يوجد شخصٌ بالعالم مثله.

كادت دموعي أنّ تسقط أريد أنّ أقولُ لها : كفى... كفى أرجوكِ اصمتي، أود أنّ أضع يدي على أذني لأتوقف عن السماع، فكلماتها كالخناجر تطعن ما بين ضلوعي.

حين رحلوا تفوه لساني باسمه، لم يلتفت، ظل موليا ظهره لي، قلت له : شكراً على ما فعلت، وآسفة لأنّني وضعتك في هذا الموقف.

قال بسخرية : لا تأسفي، يكفيني أسفي على حالي لأنّي تورطتُ مع واحدةٌ مثلك.

ذبحتني كلماته، وقعت على الجرح فزادته عمقاً، ترقرقت دمعتي وأغمضتُ عيني بقوّة، ولكنّ أليس هو محقاً.....

بعد هذا اليوم لم أعد أراه، ألغى رحلة شهر العسل بادعاء العمل، وذهب لعمله من اليوم التالي غير مكترث لأحد، يخرج صباحاً ولا يعود إلّا ليلاً، منعني من الخروج نهائيا، حين تشتاقني أمّي تأتي لرؤيتي لأنّي لا أستطيع الذهاب إليها، غضبت كثيرا حين علمت بقرار احتجازي بالمنزل ولكنّني هدئت ثورتها مدعية غيرته العمياء وبأنّه لا يريد لأحد غيره أنّ يراني .. ولم يكن يؤنس وحدتي سوى سعاد الخادمة، تلّك الثرثارة التي تأتي لتنظيف المنزل يومياً وتُعد الطعام، لا تستطيع أنّ تغلق فمها لخمس ثوانٍ فقط، كنتُ أنزعج منها في البداية لكنّ بعد ذلك أحببتها، فقد أضحت مصدر تسليتي الوحيد، كانّت خفيفة الظل كثيرا كانّت تستحضر ضحكتي وتنسيني همي لبعض الوقت، ثم تنهي عملها وترحل وتتركني في المنزل الضخم لترافقُني وحدتي مجددا.

في بعض الأحيان كنتُ أنتظره ليلا، وحينما يأتي يتجاهلني، يمرُّ من أمامي وكأنّني غير مرئية وكأنّني والهواء سواء، انخفض وزني كثيرا فأنّا لا آكل إلا القليل، شهيتي مغلقة تماما، حزينة مكتئبة خائفة لا أعلمُ على ماذا ينوي أدهم!!! أجلس في مكاني المعهود بجانب الشرفة أُقلب الحساء منذ أكثر من نصف ساعة، ولم أتذوقه بعد، أنظر للحديقة الواسعة المرتبة بعناية لأشجارها المتراصة وورودها الرائعة المتناثرة في كل مكان، أما عقلي فهو أبعد ما يكون عن هذا الجمال شارد في زمنٍ آخر.

حدثني رامي حتّى ألتقيه خارج الجامعة، رفضت، فلدي محاضرة، أصر كثيراً فذهبتُ إليه، ركبت سيارته وانطلق بها مسرعاً، استغربت تصرفاته يبدو متوتراً، سألته قال أنّه يريدُني في موضوع، هام جلسنا بمقهى لنتحدث، تناولنا الفطور وطلبتُ قهوتي، ذهبت الحمام لأعدل زينتي وعدت، أخذ يتحدث في أكثر من موضوع غير مترابطين، لم أفهم منه شيء، أو أعرفُ ما يريد بالضبط، لكن لم تمر دقائق حتى اتضح كل شيء، يبدو أنه كان عاقداً النية على إيذائي، ووضع لي شيءٌ بالمشروب، فقد شعرتُ بأشياء غريبة تحدّث لي كأنّني تجمدتُ .. غير قادرة على الحركة أو الكلام، أشعرُ، أرى وأسمعُ كُلُ شيء بوضوح، رأيته يتجه بي لمكان بعيد متطرف، توقف أمام بناية ضخمة، أمسكَ يدي

يقودُني، تتبعته كالمغيبة أو المنومة مغناطيسياً، صعد بي لشقة كبيرة لا يوجد بها الكثير من الأثاث، أدخلني غرفة نوم قذرة مبعثرة المعالم، نزع عني ملابسي وألقى بي علي سريره القذر انتهك حرمة جسدي، انتهك عرضي، وانتزع براءتي، أريدُ أنَّ أصرخ، أريد أنَّ أركله ليبتعد عني، أنَّ أبعد يديه القذرتين عن جسدي، لكنَّني لمّ أستطع فعل شيء..... وحينما انتهى مني ارتدي ملابسه وغادر الغرفة، تركني على ذلك السرير القذر الذي شهد اغتيال كرامتي وضياعُ شرفي، عيناي تنظران لسقف الغرفة بجمود، فقط روحي النازفة هي من يبكي على حالي، مرت ساعتان وأكثر وأنا على هذا الحال، مروا كأنَّهم عامين، وبدأت أستفيق تدريجيا من هذه الحالة، حاولتُ النهوض بصعوبة وقفت أترنح، ألملم ملابسي لأستر جسدي، ارتديتُها بمعجزة ثمَّ استسلمت للوقوع أرضاً، تكورت عل نفسي وأخذتُ أبكي بهستيريا لنصف ساعة، بعدما استعدت توازني خرجت من الغرفة باحثة عن هذا الندل، لكنَّني لمّ أعثر عليه كانت الشقة فارغة، نزلت منها مسرعة ألقيتُ بنفسي في سيارة أجرة أوصلتني لمنزلي نظفتُ جسدي لساعات وكأنَّني أريد نزع جلدي الذي لامسته يديه عني.

سجنتُ نفسي في سريري بداعي المرض، أسبوعاً كاملاً لا طعام ولا شراب، فقط أبكي وأبكي، وليت البكاء يصلحُ ما كان، لمّ تعد لدي رغبة في أيُّ شيء، لا أريدُ الخروج من غرفتي، لكنَّني اضطررت إلى الخروج والذهاب للجامعة حتَّى لا أثيرُ الشبهات أكثر من ذلك ...

فور وصولي، التف من حولي أصدقائي ليطمئنوا على حالي، فجأة وجدته يخترق الجمع بكل وقاحة ويقف أمامي وبابتسامة ساخرة يقول لي :حمداً لله على سلامتك.

أردت أنَّ أصفعهُ أبصقُ في وجهه لكنَّني حاولتُ التحكم في أعصابي حتَّي لا أثيرُ أيُّ فضائح، انتظرتُ حتَّي رحل الجميع ثمَّ ذهبتُ معه جانباً لنتحدّث

قلتُ له بقهر :لمّ فعلت معي ذلك..... اعتقدّتُك تحبّني!!!

رد ببرود ولا مبالاة : ألم يكن هذا حبّاً!!! بل هو أقصى درجات الحبّ.

قلتُ من بين أسناني : أيها الندل الحقير ال....

حينها أشهر هاتفه في وجهي وقال أنصحك أنَّ تشاهدي هذا قبل أنَّ تتفوهي أيُّ كلمة تندمي عليها لاحقاً.....

أمسكتُ هاتفه بأنفاسٍ مضطربة وجدتُ مقطع فيديو، ضغط عليه بتوجس ليعمل، ظهر محتواه فتحتُ عيني على اتساعهما، لم يصدّقُ قلبي ما يري، لم يصدّق أنَّه وقع في بئرٍ ليس له قرار.

استفقتُ من شرودي على صوت سيارة قادمة من الخارج، استغربتُ كثيراً فأدهم لا يعود قبل منتصف الليل، استرقتُ النظرمن باب المطبخ بحذر، رأيته يصعد الدرج ببطء، يستند على حافته عند كل درجة يبدو متعباً جداً، لا أعلمُ ماذا أفعل؟

انتظرتُ قليلاً أتشاور مع نفسي ثمّ اتخذت قراري بالصعود خلفه، طرقتُ الباب بتردد، لم يأتيني أي رد، فكرتُ في الذهاب لكنَّني خشيت إن أصابه مكروه، تشجعت وفتحتُ الباب فتحة صغيرة نظرتْ من خلالها ليصدمني ما رأيت، شهقت وفتحت الباب على مصرعيه، ركضت للداخل، وجدته ملقى على الأرض، حاولت إفاقته ولم أستطيع، يبدو شاحباً جداً، جلستُ أبكي بجواره، توقف عقلي عن العمل لثوان.... يا إلهي ماذا أفعل ؟.

لمحتُ هاتفه، التقطته، تذكرتُ بصعوبة اسم صديقه المقرب، فهو طبيبٌ مثلهُ أخذتُ أبحثُ عن اسمه في قائمة الأسماء حتى وجدته، هاتفته وأخبرته بما حدّث، أخبرني أنَّه سيأتي في الحال، وأمرني أنَّ أفعلُ عدة أشياء له لحين وصوله، وما هي إلَّا دقائق حتَّي حضر، حملناه للفراش وعلقَ له مغذي وضع به عدة فيتامينات، أخبرني بأنَّه يعاني من إجهاد بدني شديد وقلة تغذية، رقدت بجانبه طوال الليل أنظرُ إليه، ربَّاه كم تغيرت ملامحه! كم يبدو متعباً وفاقداً للكثير من وزنه، بكيت، لعنتُ نفسي، فأنَّا السبب في كل ما يعانيه، أنَّا السبب في كل ما وصل إليه حاله، لم أفارقة لحظة واحدة حتَّى الصباح، عندما استفاق رفض أيُّ مساعدة مني، حتَّى أتى صديقه الطبيب وأخبره بضرورة الراحة

وتناول الطعام الصحي، وبأنّه لن يسمح له بالخروج ومتابعة عمله حتَّى يسترد صحته، حينها فقط بدأ يتقبل مساعدتي، كنتُ أساعده في الوقوف والجلوس وفي تبديل ملابسه، أعدُ له الطعام الصحي كما أمرني الطبيب، وأساعده في تناوله.

في البداية كان يتلاشى النظر لي، ثمَّ بعد ذلك كان ينظر لي نظرات معاتبة تخترق صميمي، وتشعرني كم أجرمتُ في حقه، تدمع عيني وأهربُ لغرفتي أبكي حتَّى تجفُ أنهار دموعي وأعود إليه مجدداً، لتقتلني نظراته من جديد.

وكم من شيء فينا ظنناه زال... لكنه لا يزال !!

رأيتُ نفسي بهيئة لم أتخيلها بأسوأ كوابيسي، عاريةٌ كنتُ، مستسلمة لمّا يفعله بي، ينتهك جسدي بأبشع الطرق، لم أستطع أنَّ أشاهد، أغلقت الفيديو كمن يتستر على جريمة، نظرتْ إليه مصدومة، لم يكتفي بما فعل، بل قام أيضا بتصويري.. زين وجهه بابتسامة ساخرة، سحب هاتفه من يدي ورحل وترك لي شقائي.

ومن هذا اليوم أخذت علاقتنا منحنى جديد، أصبحت علاقة حميمية تحت التهديد، فقد أجبرني على استمرار علاقتي به وإلَّا فسوف يقوم بنشر الفيديو والصور التي التقطها لي على كل هواتف أصدقائي، بل الجامعة بأسرها وعلى الإنترنت...

توسلتُ إليه أنَّ يتركني، ولكنَّ هل من مثله يمتلك ضمير!!

كرهت نفسي، احتقرتها، فكرتُ في الانتحار ولم أستطيع، كنتُ أجبن من أنَّ أفعلها؛

عندما اقتربت منه علمتُ عنه كلُّ شيء، لم يكن من عائلة ثرية مثلما كانَّ يدعي بل لم يكن يملك عائلة من الأساس، وكل هذا الثراء الذي يتباهى به كان مصدره المخدرات، كانَّ تاجراً يستورد الحبوب المخدرة من الخارج ويبيعُها بين الشباب، لذا كان يتواجد بالجامعة دائما وله فيها مئات الأصدقاء، ليتضح أنهم ليسوا سوى زبائنه، وما وضعه لي بالمشروب يومها كان يدعوها الحبة السحرية التي

تجعل الإنسان مسلوب الإرادة نهائياً..كان يجبرني على التعاطي معه، كنتُ أرفض في البداية، أما فيما بعد بدأت أتعاطى نوعاً من الحبوب يجعلني أفقد الشعور حتَّى لا أشعر بما يحدث بيننا.

مرت الأيام والأشهر على تلك العلاقة حتَّى اقتربت من السنة، وفي يومٍ كليلة العيد علمتُ أنَّه تم القبض عليه.. ارتعبت، خشيتُ أنَّ يقع الفيديو خاصتي في يد الشرطة ستكون فضيحة، ذهبت إليه في زيارة لأعلمُ منه مصيري..

تلاعب بي في البداية ثمَّ أخبرني بأنَّ كارت الذاكرة قد احترق بعد أيام من تسجيل الفيديو ولم يستطع إستعادته ... لا أعلمُ هل أفرح لأنَّني تخلصتُ منه؟ أم أحزن لأنَّه تلاعب بي واستغلني أسوأ استغلال....

عانيتُ كثيراً في تلك المرحلة، مرت أشهر، مرت كسنينٌ عجاف، نام الجسد ولم تغفل الروح، فالألم يثقلُ بالجسد يحاصر الروح من كل حدبٍ وصوب، يقيد أطرافك بالذكرى والندم، تعتقدُ لوهلةٍ أنك على قيد الحياة، أما في داخلك فأنت ميت منذ زمن لكن أحداً لمّ يحضر جنازتك سواك، أحداً لم يبكيك إلاّك.

ما ساعدني من تخطي تلك المرحلة العصيبة وما أشعرُ به من خواء الروح واحتقار الذات هو اقترابي إلى الله، تغيرتُ كثيراً وتغيرت نظرتي للحياة، أصبحتُ شخصا مختلف، تغيرت ملابسي، أصبحت أكثر حشمة، ابتعدت عن كل صديقاتي القدامى، أنشأت صداقات جديدة قليلة مع بعض الفتيات اللاتي كنتُ يوماً ما أسخر من ملابسهن وتحفظهن في التعامل مع الآخرين... كم كنتُ غبية وإلى أين أوصلني غبائي!!

قطار الخطاب لم يتوقف للحظة أنهكني الرفض واستنزفت حربي مع أهلي كلُّ طاقتي، فقد استمرت لسنوات... حتَّى تقدم أدهم لخطبتي ولم أستطع حينها إكمال مسلسل الرفض... أدهم كانَّ مثالياً، وأبي كانَّ سعيداً جداً به، وخشي أنّ أفسد الأمر ككل مرة فعجل سريعاً بالزواج.....

بعدما تماثل أدهم الشفاء تغيرت حياتنا قليلاً، أصبح يأتي للغذاء يوميًا، يجلس معي علي الطاولة لدقائق، تتفوه شفتاه ببضع كلمات يرتدُ وقعها على قلبي وليس أذناي حتَّى أصبحت تلك الدقائق أفضل ما يحدث لي في يومي، بدأت أعشق زيارة والدته لنا، فهو حينها يجلس فترة طويلة يتحدث معي، يبتسم لي لتشرق شمس حياتي عندها ثمّ تغرب مجدداً حينما تتساءل والدته بطيب نية عن إنَّ كانَّ هناك طفلٌ في الطريق، ينظر لي نظرة قاتلة ذات مغزى ويردُ عليها مبتسماً: بأنَّ الله لمّ يُرد بعد.

أصبح وقع أقدامه كناي يعزف علي أوتار قلبي، وعندها أتحجج بأيُّ شيء لألتقي به، لأحظى بنظرةٌ من عينيه تهدئ من جنون اشتياقي، أو أنَّ أسمع اسمي الذي يصبح له مذاقاً آخر عندما يخرج من بين شفتيه... يهدرُ قلبي داخلي بعنف إثر لقاء لا يتعدى اللحظات، ولا يستغرق سوى كلمةٌ واحدة، أعلمُ أنَّ جسدي لمّ يعد يُغريه، وأنَّ سحري لمّ يعد يُغويه، ورغم يقيني إلَّا إنَّني كنت أتعمد ارتداءُ شيءٌ مغريا حين اللقاء به ليرحل عني بقسوة مخيباً كلُّ آمال أنوثتي، وأعودُ بخيبتي لغرفتي أحتضنُ وسادتي وأشكو لها قلةُ حيلتي لتحتضنُ هي الأخرى دموعي.

آآآه لو تعلم كم أنَّا طامعة منكَ بضمة، بأنَّ تغلفُني ذراعيك، بأنَّ يلتقطُني صدرك وأتوسده أمنةٌ مطمئنة، أنَّ أدفن بين ضلوعك أوجاعي وآلامي، وأسرق من ابتسامتك فرحة أيامي المقبلة، لكنها ليست سوى أحلام.. فكن منصفاً يا سيدي القابع بين أضلعي، لم يعد لك نصيب من هذا القلب الموجوع فقد لفظك من حياته.

ولكن هل ألومه!! لا بل يجب أنَّ أستمر في لوم نفسي فقط، فبرغم خداعي للوقوع في الخطأ إلَّا أنَّني منذُ البداية وأنَّا المخطئة، أنَّا من استبحتُ جسدي لتتلقفه العيون، أرضت غروري نظرات الإعجاب، وأسعدني كسر القلوب، فتهشم قلبي عن آخره.

دوما ما أخبرونا وملأوا عقولنا أنَّ الزواج هو مقبرة السعادة ومقبرة الحبّ، تنتهي علي أبوابه متعة الحياة، فيجب أنَّ نستمتع بكل لحظة في عمرنا قبل الوقوع في المصيدة،

والسَجن في قفص الزوجية، أفكار وأفكار تداولتها الفتيات وترسخت في عقولهم وكأنَّ هذا الزوج السجان الذي يسوق زوجته للمنفى...

لو كنتُ أعلمُ أنَّ هذا الشخص هو من سيصبح زوجي، زوجي الذي أُحبّ الذي يسري عشقه بين كرات الدم في العروق، الذي أتمنَّى أنَّ أسكنُ روحه ولا أفارقُها حتَّى يستردُ الله أمانته، لو كنتُ أعلمُ كلُّ ذلك لكنت حافظت على عذرية مشاعري من أجله، حافظت حتَّي على عذرية نظراتي لأجل هذا الرجل الذي سيصبح لي بكلُّ الرجال مثلما سأكون أنَّا له كُلُّ النساء، وما كان شيءٌ ممَّا حدث قد حدث.

استيقظتُ من نومي مضطربة بقلبٍ موجوع، حلمٌ سيء راودني وكأنَّني وصلتُ لنهاية طريق غير مكتمل وسقطتُ فيه، انتظرته بلهفة أستجدي الأمان من نظرة حانية من عينيه تمسدُ على قلبي المضطرب وتزيلُ عنه توتره وخوفهُ، لكنَّني تفاجأتُ بنظرة مغايرة زادت من خوفي أضعاف، نظرة جامدة قاسية أو ربما تدعي القسوة، ترسمُها قناعاً لتتماشى مع الوضع القاسي... خارت قدماي، جلستُ متوقعة ما ستتفوه به شفتاه وقلبي أغلق بابه راجياً ألا يسمع تلك الكلمات القاتلة، ولكنّ أين المفر؟؟

شعرتُ به يجمع شُتات كلماته قبل أنَّ يلفظها، شعرتُ به يتوجع هو الآخر، لم تكن مهمة ينهيها بدمٍ بارد، ولكنّه أيضا يتألم من قراره.

قرر أنَّ ننفصل بعد مضي أكثرُ من عامّ من مشاعر متضاربة كان الألم فيها سيد الموقف،

لكنَّني استطعتُ أنَّ أقرأ ما بين السطور، ما قالته عيناه ولم يلفظه لسانه، بأنَّه حاول وحاول طوال تلك الفترة أنَّ يسامحني ..

أعطى لقلبه وقتاً كافياً ليستطيع التغاضي، ولكنّ الوجع والجرح كانَّ أعمق من أنَّ يستطيع غفرانه، بأنَّه كان يمكنه أنَّ يخرجني من حياته منذُ وقتٌ طويل، لكنّ روحه كانَّت تتمسك بالأمل في السماح يوماً، لكنَّ القلب أبى....

ارتميتُ بين أحضانه، ضمّني بذراعيه بقوّة ضمّة طوقت نفسي لها وترجتها روحي، تلمست أصابعي ملامحه، استنشقت أنفاسي أنفاسه لتحفظها عن ظهر حبّ، انتزعتُ نفسي من بين ضلوعه بما أوتيت من قوّة.. فكم هو صعباً أنَّ تنتزع روحاً تائهة بعدما وجدت ملجئها أخيراً...

رحلتُ عن هذا المنزل الذي أصبح سكني ومسكني، احتفظتُ بتفاصيله في قلبي مثلما يحتفظ قلبي بصاحبه بين جدرانه..

مرّ على فراقنا ما مرّ ومازال يسكنني، لن أستطيع الزواج بآخر، فقد ملأ قلبي وروحي عن آخرها، لمّ يعد لدي ما أُعطيه لأحد، وأعلمُ جيداً رغم كل شيء أنَّني ما زلتُ قابعةٌ بين ضلوعه..سيظل دائماً رجلي الذي انتظرني ولم أنتظره، الذي اعتقدته نهايتي فكان أروع بداية... تخيلته أسوأ ما قد يحدث لي لأجده أجمل ما أهدتني الحياة يوماً..سأبقى على قيد الأمل ، على حافة الانتظار متأهبة أن يواري كبرياءه جانباً، ويطلق لقلبه العنان ويأتيني ونبدأ من جديد...

*****

لست عانس..

أنا فقط أبحثُ عن الحب !!!

برد قارس يكاد يجمد أطرافي، أشعرُ أنّ وجهي أصبح رخامياً من شدةّ موجات البرودة التي تلطمه، تشبثت بمعطفي لعلّي أستمد منه بعض الدفء، لكن دوامة الصقيع التي تحاوطه نزعت عنه وظيفته... زخاتُ مطرٌ تداعب وجنتي وأطراف أنفي المتجمد لتكتمل الصورة، بضع خطواتٍ واشتد المطر كثيرا وعمت الفوضى في الأجواء، أشخاصٌ تركضُ حولي، من يحتمي بمظلته، وآخر بجاكيته، شابٌ يحاوط فتاته بذراعيه، يحميها من الأمطار مستغلاً الوضع بلؤم، صبيان يركضان صارخين، فرحين باللعب تحت الأمطار الغزيرة، أسرعت الخطى، تسمرتُ تحت واجهة متجر بارزة للخارج لأحتمي بها، ولكن الأمطار لم تكن عمودية بل منحرفة يسارا نحوي تغرقني في كافة الأحوال، أغمضتُ عيني بيأس، مستسلمة، منتظرة أن تمُن علي وتهدئ قليلاً لأستطيع استكمال مسيرتي... لحظاتٌ فاصلة بين ضياع واستسلام، رغبةٌ وأمل.

لتضع أنفي شعورها بالبرد ورائحةُ المطر التي تغشيها جانباً وتستنشقُ عطراً فرنسياً رجولياً قويا يقترب منها ثم يجتاح محيطها اجتياحاً، انتهت موجات البرد توقفت الأمطار عن إغراق وجهي وملابسي، أنفاسٌ هادئة منتظمة تلفح وجنتي من مسافةٌ قريبة، فتحتُ عيني بفضول مضطرب لترتطم بصدرٍ عريض يقف حائلاً بيني وبين المطر وموجات البرد، ويداً مرتفعة بمظلة، رفعتُ عيني ببطء لتتسمر مقلتيها في تلك العينين السوداوين الواسعتين التي لم أرَ لجمالهم مثيلا من قبل، تحاوطهم ملامح حادة، قاسية في تناقض غريب لكّنه جميل.. جميلٌ جداً جعل قلبي يهدر بداخلي ويعزفُ أجملُ الألحان.

وبصوتٍ موسيقي كعزفٍ على أوتار ناي قال لي : دقيقة وتنتهي الأمطار و تستطيعي الذهاب.. ومن قال لك أنّني أريدُ أنّ أذهب.

حرارةٌ تتصاعد بأعماقي وكأنّني قد أشرقت بداخلي ألف شمسٌ وشمس، تعلقت بعينيه وملامحه مجدداً لأحفظهم عن ظهر اشتياق.. اشتياقٌ لمشاعر ظننتُ أنها ولت منذ زمن، لكن ها أنا أقبضُ عليها الآن، على بعد خطوةٌ مني لأؤمن بأنّها مازالت موجودة وقد يفاجئنا بها القدر في صدفة عبثية غير متوقعة.

استجديتُ الأمطار ألا تتوقف حتى لا تنتهي تلك اللحظات التي قضيت عمري أبحثُ عنها، أبتسم ابتسامة واسعة، ساحرة وكأنّه اخترق دواخلي وعرف فيما أفكر.

احمرتُ وجنتي خجلاً وحرارةٌ، اجتاحتُ أطرافي كأنّ صيفاً قد حل للتو وتصارعت الفصول؛

صوتاً حاداً اخترق حيز الصمت، ويداً قوية انتزعتني من دوامة مشاعري، رحتُ أبتعد عنه ببطء وعيني معلقة في ملامحه حتى اختفى تماماً... ليحل محله وجه أمي الصارخ : هيا استيقظي لتساعديني قليلاً، فلتفعلي شيئا مفيداً بحياتك غير النوم....

يا إلهي كلُ هذا لم يكن سوى حلماً، ليته كان واقعا؛ زفرتُ يائسة، وضعت الوسادة فوق رأسي مجدداً محاولة العودة للحلم مرة أخرى، فلم أستطع فأكملته من وحي خيالي، وأنهيته حسب رغبتي..

أتنقل بين واجهات المحلات التجارية بملل، فقد أجبرتني أمي اليوم على النزول لشراء فستان جميل ولوازمه من حقيبة، وحذاء، وحجاب، لأبدو في أبهى حُلتي مساءً، فلدينا الليلة عرساً، وكم تعشق أمي الأعراس، فربما يراني شابا هناك أحلو في عينه فيأتي لخطبتي فموضوع زواجي هو شغلها الشاغل.

أعذرها أحيانا فقد تخطيتُ الثلاثين، وأعلم ما يقال عني، فلقب عانس أصبح يرافق اسمى، أنا أيضا لستُ سعيدة بوضعي، بل تذبحني تلك الكلمة ولكن ماذا عساي أفعل؟؟ فلم يأتيني سوى بضع عروض زواجٍ بائسة على استحياء، طوال سنوات عمري تلومني أمي لرفضي، ولكن هل يجب أن أقبل بأي شخص حتى لو لم تقبله نفسي فقط لأدرئ عني لقب عانس!!!

أعلمُ انني لستُ جميلة كفاية ولكن هل هذا سبباً لأعيشُ حياتاً بائسة!

أنا لا أطلب الكثير، فقط أريد رجلاً تقبله نفسي، يرجفُ له قلبي، يشعرني بالأمان، بالحب، بالحنان، هل هذا كثير؟

بعدما انتهيت من شراء أغراضي بعد عناء، ذهبتُ للجلوس بمقهى مجاور لأرتاح قليلا وأتناول مشروب، لا أعلمُ، لم أكره الشراء لهذا الحد رغم أن النساء عادةً تعشق الشراء، هل لأنّني مجبرة عليه؟ أو ربما لشعوري بأنني أعرضُ نفسي فيه كسلعةٌ قد يرغب بها أحد!

جاء النادل ليسجل طلبي، رفعتُ عيني إليه أطلبُ قهوتي، فتوقفت الكلماتُ في حلقي، يا الله كم كان يبدو وسيما، كرر جملته مرة أخرى، فتنبهتُ وطلبتُ قهوتي بكلماتٍ مبعثرة... وضع الفنجان أمامي ولم أرفع عيني إليه حينها، لكنها كانت تتبعه بين الحين والآخر، وفي كل مرة أجدُ عيناه تلاحقني وتلاحق كل تحركاتي، حسبتني أهذي فرحلتُ سريعا تاركة عقلي هناك.

انتهى العرس الكئيب بعد مشاجراتٍ عدة مع أمي، لأنني رفضت أن أشارك الفتيات الرقص حول العروس والتحرك في قاعة الأفراح ذهاباً وإياباً حتى يلاحظني أحد، وقررت المكوث بجوارها على الطاولة طوال العرس، فقد كان عقلي عالقا هناك في ذلك المقهى...

في اليوم التالي راودتني نفسي على الذهاب هناك مجدداً، حاولتُ إقصائها لكنّها كانّت أقوى مني، ونجحت بالفعل وذهبت... شعرتُ بتوتر كبير يجتاحني حينما اقترب مني، وارتجفت أطرافي عندما قال : كنتُ أعلم أنكِ ستأتي مجدداً.

نظرتُ له ببلاهة ولم أتحدث، ابتسم ابتسامة ساحرة ثم قال : سأحضر لكِ قهوتك كما تحبين فقد حفظتها.

ذهب وبقيت أنا واجمة متيبسة في مكاني غير مصدقة أن هذا حدث للتو وبأنّني لم أكن أتخيل البارحة.

وضع القهوة مبتسما، بادلته الابتسامة على استحياء، وعندما ذهب لمحتُ ورقة صغيرة قابعة تحت الفنجان، رفعت فنجاني ومسكتُ الورقة بأصابع مرتجفة فتحتها ببطء

لتتسع عيني وهي تمرُ على ما تحويه من كلمات...

(كتبتُ لكِ رقم هاتفي إن أردتِ الحديث معي مثلما تتوقُ نفسي لمحادثتك فلتهاتفيني، أنتظرُ سماع صوتك على أحرُ من الجمر)

شعرت بكل الطاولات من حولي تستمع لطبول قلبي، احتضن كفي الورقة ورحلتُ راكضة كأنّني أهربُ من ملاحقة عينيه حتى لا تفضح مشاعري، وما يحدث داخلي.

قضيت ليلتي في قراءة تلك الورقة، قرأتها أكثر من مائة مرة، وكتبت الرقم على هاتفي مرات ومرات...

أتردد فأمحوه ثم أعود لكتابته مرة أخرى، أعلمُ بخطأ ما أنا مقبلة عليه، لكنني لا أستطيع منع نفسي من تذوق هذا الشعور، بعد حرب قوية بين العقل والقلب، كالعادة انتصر القلب وهاتفته، حدثني بثقة وكأنّه كان موقنا بأني سأهاتفه، وبصوت رقيق يتلاعب بأوتار القلب قال لي أنّه أُعجب بي من النظرة الأولى، خفق قلبه عندما وقعت عينه عليّ، تأكد حينها أنّني أنا من ينتظرها منذ زمن، أنا من كان يبحثُ عنها دوماً، وأخيرا أرسلها له القدر كهدية في يوم مولده.

طارت بي كلماته فوق الغيمات الوردية، أصبحنا نتحدث ليلاً ونهاراً، ملأت تلك المحادثات فراغ قلبي ووحدتي، أشبعت كلماته احتياج الأنثى بداخلي.

طلب مقابلتي، وافقتُ بسعادة، قابلته وتعددت اللقاءات، وكم راق لي شعوري بوجود شخص يملأ حياتي، وأيضاً قربِ من التخلص من لقب العانس الذي أصبح يرافقني، يؤذي مشاعري ويطعنُ كبريائي.

كنت أشعرُ بالزهو وأنا أسيرُ بجوارهُ عندما تلاحقه نظرات الفتيات من كلُ صوب، وأشعر بالحرج في ذات الوقت حينما ينظرون لي باستهجان وكأن عيونهم تحدثني كيف لهذا الشاب الوسيم أن يرافق تلك الفتاة القبيحة؟

لكنّي لم أكترث بهم، واحتسبت تلك النظرات الحقودة ما هي إلا غيرة فتيات حمقاوات؛

في أحد اللقاءات طلب مني مبلغاً من المال ليدفع حساب المقهى، أعطيته بكل ترحيب ولم أفكر في الأمر حتى، بعد ذلك تكرر الأمر كثيرا مبرراً لي أن عمله لا يدر عليه الكثير وبأنه يريد تركه و البحث عن عمل أفضل منه.

كنتُ أعلمُ أنه يستغلُني لكن قلبي أقنعني بأنّه لا ضير من مساعدته طالما أستطيع، ثم أن المبالغ التي يطلبها لا تسبب مشكلة بالنسبة لي، لكنها فيما بعد سببت مشكلة كبيرة فلم أعد أملك تلك المبالغ التي يطلبها مني، خشيتُ أن أرفض أو أخبره أنني لا أملك هذا المال فيغضب أو يعتقدُ أني لا أقف بجانبه في وقتُ حاجته.

فبدأت أبيعُ مصوغاتي تدريجياً وأدعي ضياعها لأوفر له ما يحتاج من مال، ثم أتت الطامةُ الكبرى بعد ذلك عندما طلب مني مبلغاً ضخماً ليشارك صديقاً له في مشروع سيدير عليهم الكثير، سيفتتحون مقهى كبير في منطقة حيوية.

صدمتُ من الرقم الذي طلبه مني، فترجاني بأن أتصرف، أفعل أي شيء وأحضر له هذا المبلغ..

فهذا هو حلمه الذي يتمنى أن يحققه، وهو الذي سيمكنه من التقدم لطلب يدي للزواج...

كانت تلك المرة الأولى التي يتحدث فيها عن الزواج، لم أنم ليلتها فكرت كثيرا وتساءلت هل أعطيه المال أم لا ؟

حسمت قراري، وفي الصباح تسللت إلى غرفة أمي فتحتُ الخزانة وأخذتُ دفتري البنكي، فأبي كان يضع لي ولكل إخوتي مبلغاً في حسابٍ بنكي يكفي كل نفقات زواجنا، ذهبت إلى

البنك وسحبتُ له المال، اتصلت به وطار من الفرحة عندما أخبرته بأنني تحصلتُ له على المبلغ الذي أرادهُ، قبل يدي وأخذ يتغزل بي لساعات ويغدقني بوعود ليس لها آخر، فبمجرد أن يعمل المقهى سيرجع لي أموالي وسيأتي لخطبتي ويجعلني أسعد فتاة على وجه الأرض، شعرتُ بعدم الارتياح، وبأنّ شيء سيء سيحدث، في المساء هاتفته لكنه لم يجيب حاولتُ مرارا دون فائدة، ارتميتُ على سريري أنظرُ للسقف بشرود، تحدثني نفسي هل يمكن أن يكون قد خدعني؟

أن يكون نصابا أخذ أموالي ورحل، جلستُ أنفضُ عن رأسي تلك الأفكار السيئة وأستنكر هذا التفكير...عاتبتُ نفسي علي سوء ظنها به فربما يكون مشغول في تجهيزات مشروعة، في الصباح هاتفته، لتشلني الصدمة، هاتفه مغلق، حساب الفيس بوك مغلق أيضا، ارتديتُ ملابسي سريعاً، أتشبثُ بالأمل، ذهبتُ للمقهى الذي يعمل به، قال لي أحد العاملين: أنه ترك العمل مما يقارب الأسبوع، ترجيته أن يخبرني أي شيء عنه، فقال لي أن لا أحد يعرف عنه شيء غير اسمه ورقم هاتفه، وأعطاني الرقم فكان هو ذاته الذي معي..

مشيتُ في الطرقات، تجر قدمي أذيال الخيبة، لا أصدق أنه خدعني بتلك السهولة ابكي.. وأبكي..

لستُ حزينة على المال بل لأنّني خُدِعتُ فيه، شعرتُ بالدنيا تميدُ بي، سقطتُ في بئرٌ مظلم، يغلفني الظلام من كل اتجاه، أصوات بعيدة أسمعها همساً مبهماً، أصبح يتضح شيئا فشيئا، وشعاعُ ضوءٍ أراه من البعيد يقترب مني أو أقترب أنا منه فيؤذي عيني، فتحتها ببطء لتصطدم نظراتي بوجهاً رجولياً مقابلاً لوجهي تماماً وعينان قلقتان تتفحصان ملامحي، ويداً تستشعر نبضُ معصمي، انتفضتُ فجأة واعتدلتُ لأجد عشرات الرؤوس من فوقي تتابعُني باهتمام.

فقال لي هذا الشاب الذي يمسكُ بمعصمي ويبدو هو المسؤول عن حالتي اهدئي قليلا لقد أصبت بإغمائه واستفقتِ بصعوبة، اشربي هذا العصير حتى تستطيعين الوقوف، أبعدتُ يده ووقفت، فاختل توازني، فأمسكني بغضب وأجلسني مجدداً على الكرسي وأمرني أنّ أشرب كأس العصير، فشربتهُ ممتثلة لأمرهُ باستسلام، ثم طلب مني الوقوف والاستناد عليه، وحمل حقيبتي وشكر الجميع نيابةٌ عني. وقبل أنّ أسأله إلى أين يقودني، قال لي أنّه سوف يقلني لمنزلي بسيارته، أدخلني سيارة أجرة ليتضح أنّه سائق، جلس خلف عجلة القيادة وانطلق بي.

سألني عن العنوان الذي يقلني إليه طلبت منه أنّ يقود السيارة لأي مكان حتى

أطلب منه التوقف وسأعطيه كل ما يريد...لا أريدُ العودة للمنزل وأنا بهذا الشكل، لا أريدُ لأمي أنّ تراني هكذا... أسندتُ رأسي على زجاج النافذة، أبكي بصمت تارة وبنحيب تارة أخرى، أصمت قليلا ثم أعود مجدداً للبكاء والنحيب، والغريب أنّ هذا السائق لم يفتح فمه بكلمة، أو يلتفت نحوي حتى، لو لم يتحدث مُنذ قليل لاعتقدتُ أنّه أبكم، فبخبرتي مع سائقي التاكسي، أعلمُ جيدا كم يعشقن الثرثرة والتدخل فيما لا يعنيهم، وحالتي تلك وجبة دسمة للتساؤل وإرضاء الفضول، أما هذا فلم ينبث بحرفٌ واحد فقط، يجوبُ بي الطرقات، أماكن أعرفها وأخرى أسيرُ فيها للمرة الأولى... يتعمد السير في الأماكن الهادئة بعيدا عن الزحام والناس، وهدىء من سرعته تماما عندما مررنا بجوار النيل لأرء هدوءه وجماله في تلك الساعة من النهار، والشمس تنثر شظاياها على صفحته، وكأنّه يحاول مساعدتي للخروج من تلك الحالة العصيبة، بعد ثلاث ساعات متواصلة ولم يتذمر حتى طلبت منه أن يقلني لمنزلي، عندما وصلنا أخرجت حافظت نقودي وسألته كم يريد!

قال لي أنّه لا يريد شيء طالما أصبحت بخير، وطلب مني النزول.

نزلتُ من السيارة ووقفتُ واجمة أنظر له وهو يرحل باستغراب!

كم هو غريب هذا الشخص!!!

صعدتُ شقتنا أواري وجهي عن أمي حتى لا تعلمُ ما بي، دخلتُ غرفتي، اختبأت من الدنيا في فراشي، تدثرتُ بغطائي ليفصلني عن هذا العالم السيء،

تشبثتُ به أهربُ من الغدر في محيطه الآمن عله يحجبُ عني ما أشعر به من ألم يسكنُ أوجاعي بين ثناياه، ولكن هيهات، فليت الوجع خارجي لكان هيناً، لكنه جمرةٌ تسكن بين الضلوع، تمزقُ روحي وتحرقُ أحشائي... وكأنّ بقلب الأم جهازاً يستشعر ما يحمله الأبناء من آلام... رأيت أمي تقترب مني، ترفعُ عني الغطاء الذي أحتمي به، تمسد شعري بحنان، وتسألني ما بك؟

انهرتُ حينها، وجدتُني أعترف لها بكل شيء، أخبرتها بما حدث لي وبما أشعرُ به الآن رغم علمي المسبق بما قد تفعله بي لم أكترث، شعرتُ أنني أستحقُ كل ما ستفعله بي..تهيننني.. تجرني من شعري.. تضربني لأول مرة بحياتها.. تركلني بقدمها.. أنا أستحقُ كل شيء.. ولكن الغريب أنّها لم تفعل ذلك، بل احتضنتني بقوة كأنّها تريد إدخالي لأحشائها مجددا، امتزجت دمعاتها بدمعاتي وهي تقول لي: الأموال ليست مهمة الآن، المهم هو أن الحياة أعطتك درسا قاسيا، فلتتعلمي منه ألا تسيرك أهواءك فتتخذي الخطأ سبيلا.. فاحتياجك للحب ورغبتك بالزواج ليست مبرراً أنّ تنقادي وراء شخصا مخادعا تنفذين له كلُ ما يريد أملا أنّ يمن عليكِ ويتزوجك يوماً ما متناسية أنّ الله فوقك ويرى كل أفعالك، متغاضية عن الإشارات الواضحة وضوح الشمس التي تخبرك كم هو شخصٌ سيء، فالرجل الذي يطلب المال بتلك الطريقة من امرأة، أولاً لا يكون رجلاً، ثانياً لا يعتبرها امرأته هو فقط يستغلها... وكنتِ بداخلك تعلمين ذلك جيداً لكن خوفك من أنّ يتركك أعمى بصيرتك، ثم ماذا حدث في النهاية بعدما أعطيته كل شيء؟ تركك خلفه وهرب..... فلنحمد الله أنّ المال فقط هو ما خسرناه.

ويجب أنّ تعلمي جيدا أنّ نصيبك آتٍ آت، وأن الله يحفظه لكِ وسيهديكِ إياه في الوقت المناسب، سيهديكِ رجلاً لن يمنُ عليكِ بنفسه، بل سيعتبرك هبة من عند الله يحفظها بقلبه قبل عينيه وهو من سيفعل كل شيء لإرضائك.

أجهشت بالبكاء في أحضانها، أخرجتُ كل ما كان يعتمر بقلبي، لم أصدق أنّ أمي التي تنخر عظامي بكلامها والتي لا ترى شيئاً صواباً في أفعالي، التي توبخُني دائما وتؤكد لي دوماً بأنّني لا قيمة لي أو منفعة بتلك الحياة، ورغبتها الدائمة في تزويجي والتخلص مني..هي نفسها تلك الأم الحانية التي تحتضن أوجاعي الآن وتمسد على عذاب روحي فتستبدله بالسكون والطمأنينة.....

انتفضتُ في فراشي وأنا أسمع رنة هاتفي، بحثت عنه بين الأغطية ووجدته، فتحتُ عيني المتورمة ببطء، أطالع شاشته التي تضيء برقم غريب، أجبتُ مسرعة آملةٌ بغباء أني كون هو وغير رقم هاتفه، ليكسر أملي البائس صوتاً يبدو مألوف يلفظ اسمى فأجبته خيراً..فقال لي أنه سائق سيارة الأجرة الذي أقلني أمس، وبأنّ حافظتي سقطت في سيارته وسيحضرها لي أسفل منزلي بعد عشر دقائق.

جلستُ دقيقة لأستوعب ما يحدث وأجمع أفكاري ثم تذكرت كل شيء ، ركضت مسرعة غسلت وجهي وارتديت إسدال الصلاة ونزلتُ أسفل البناية، وجدته ينتظر، نزل من سيارته أعطاني حافظتي وهم الرحيل، استوقفته لا أعلم بما أدعوه، فأخبرني أنّ اسمه هادي، كدتُ أضحك رغم بؤسي، فاسمه يعبر عن شخصيته تماماً، طلبتُ منه أن أحتفظ برقم هاتفه لأتصل به عندما أحتاج من يقلني، فلن أجد سائق خلوق وأمين وبالطبع هادئ مثله.. شكرته على ما فعله البارحة وما فعله اليوم أيضاً، أجابني بلا مبالاة أنّه لم يفعل شيء وبأن أي شخص غيره

كان سيفعل ذلك، أومأت له بالرغم من أنّني أعلم أنّ قليل جدا من قد يفعل مثله.. كرهت كل شيء تقريباً، زهدتُ الحياة، أيام مرت تلتها أسابيع، لا أفارق غرفتي، لم أتعافى بسهولة... اشتركت لي أمي بدروس تحفيظ القرآن الكريم لعلي أقتربِ من الله، وحفظي لكتابه يريح قلبي ويهدي لروحي السكينة.. أصبح هادي سائقي الخاص يقلني ذهاباً وإياباً، بل أصبح سائق العائلة ككل..

أمي بالطبع تهاتفه في كل مشاويرها وأبي يلجأ إليه فوراً عندما تتعطل سيارته، حتي إخوتي إن تأخر أزواجهن في إيصالهن يقوم هو بالمهمة.

رغم هدوء هادي وقلة حديثه إلا أنّ هذا لم يؤثر بتاتا على موهبة أمي في استخراج المعلومات كأفضل جهاز استخبارات بالعالم.

استطاعت أمي أنّ تنتزع منه كل المعلومات عن حياته وأسرته وعمله، حتى حياته الخاصة لم تسلم منها، أخبرها أنه يعمل صباحاً موظفاً بشركة خاصة، ويبدأ العمل على التاكسي بعد الظهر حتى الليل، فعملاً واحداً لا يكفي، لأنّه يعول والدته المريضة، وأخته الصغرى تدرس بكلية الهندسة وتحتاج للكثير من المصاريف، غير أخته الوسطى التي توفي عنها زوجها وترك لها صبيان توأم ولا عائل لهم غيره.

تركته خطيبته منذ زمن ولم يفكر بعدها في الزواج رغم أنّه في نهاية عقده الثالث فمن تلك التي ستقبل به؟

بكل تلك المسؤوليات التي يحملها على عاتقه... أعجبتُ برجولته، بأخلاقه وتدينه، أعجبتُ بابتسامته التي تحول كل هموم العالم لرمادٍ منثورٍ بالهواء، ارتاح له قلبي وآمن به عقلي وسعدت روحي بتلك اللحظات التي أقضيها خلفه في السيارة، أستمع لتنهداته الهادئة، وأحيانا زفراته الغاضبة، كنت أشعرُ أحياناً أنّه لا يلاحظني ولا يكترث بأي شيء مما أشعرُ به، فحديثه معي لا

يتجاوز الكلمة أو الكلمتين... حتى أتى يوم مرضت فيه كثيرا واصطحبنا أنا وأمي للطبيب ولم يتركنا، ظل معنا حتى عايننى الطبيب وطمأنهم على حالتي، لمحتُ يومها في عينيه قلق وخوف كبير..

مكثت في المنزل فترة لأتعافى، قالت أمي وابتسامة خبيثة تغزو ملامحها:

إنّه يسأل عن حالتي دائما ويطمئن عليّ..

قلت في نفسي قد يكون واجبا، فمن باب العشرة يجب أن يسأل أو على الأقل من باب الذوق... لتتكسر كل ادعاءاتي الكاذبة، وعند أول لقاءٌ بيننا لمحتُ في عينيه لهفة وعلى شفتيه حديثٌ لم يقال؛

استبدله بكيف حالك؟

واستقبله قلبي باعترافٌ صريح بالعشق...لكنه صامت..

اعترف بنفسه لنفسه هذا هو العشق الذي سمع عنه حكايات وقرأ عنه قصائد ولم يكن يدري له عنوان، ها قد أتاهُ بنظرةٌ وحديثٌ لم يقال، أتاهُ بدقات قلبٍ متتالية، برجفةٍ بين الضلوع، باشتياق لا يعلمُ من أين أتى، ليجزم حينها أن أي شعور مر من قبل لم يكن شيء، فقط سراب، فهذا هو الحب..... نعم إنه الحب.

مرت بعد ذلك اللقاءات التي لا تتعدى الدقائق بينا، كنتُ سعيدة وخائفة في ذات الوقت، سمعت كثيرا عن مشقة الحب عندما يكون من طرف واحد، وكم أنا خائفة أنّ يكون عشقي من طرفي أنا فقط؛ وأتساءل ماذا سيصيب قلبي وكيف سيتحمل هذا الوجع وهذا الفراق!!!

في أحد الأيام فاجأني صوته الذي يزور أذني كالعيد حينما سألني في سابقة لم تحدث من قبل، لم كنتِ تبكي يوم التقينا في المرة الأولى؟

فاجأني سؤاله، ظننته لن يسأل يوماً، أجبته كنت غاضبة من غبائي، طيبتي، سذاجتي.

سألني :هل أحببتِ يوماً؟

قلت : أشكر الله لأنّه جعلني أحتفظ بعذرية مشاعري لأهديها لمن يستحقها.

أجزم أنّني لمحت طيف ابتسامة على شفتيه.

زادتني أسئلته اضطرابٍ على اضطرابِ، وعصفت برأسي علامات استفهام لا تنتهي ؟؟؟

بعدها غاب لفترة، أصابني البؤس والألم والضياع، كالمدمن الذي انقطع عنه سبب إدمانه، شعرت وكأنّني قد أصابني الجنون من شدةّ التفكير وعدم النوم ووجع القلب وألم الروح، تسلل الموت لروحي تدريجياً وكأنّها فارقتني وتركت لي التنفس كتذكارٍ يذكرني بها... لتحيا من جديد ذات صباح عندما رقص هاتفي طرباً برسالة آتية منه....

يقول لي :أنه ينتظرني أسفل منزلي، ويريد الحديث معي في موضوع هام.

مرت عيني على الرسالة عشرات المرات وكأنّها تتخيل صورته فيها.

حاولت بصعوبة لملمت شتات مشاعري المضطربة المبعثرة، لا أعلمُ حتى ما ارتديت، نزلت مسرعة، ضربات قلبي تسابقني بالذهاب إليه، وقعت عيني عليه تتشرب ملامحه لتطفئ شوق جوارحي...

ركبت خلفه كالعادة، تحرك بسيارته ولم يتحدث وقف أمام النيل ثم قال لي : هل يمكننا النزول قليلا؟؟ لن آخذ من وقتك أكثر من خمس دقائق؟.. تحركت ببطء، أشعر بقدمي لا تحملني، وقلبي يشعر بالتعب من شدةّ دقاته، جلستُ على مقعد أمام النيل وهو وقف أمامي في مواجهتي معطيا ظهره للسور الحديدي، وفجأة رفع عينه ونظر في عمق عيني لتتوقف أنفاسي للحظات، لا يعلم من أين يبدأ الحديث أشعرُ به، أريد أنّ أقول له قل أي شيء فقط تحدث، أخيراً أشفق على حالي وبدأ حديثه بآخر كلمة توقعت أنّ يقولها لي.. قال : أحبك

لن أستطيع أنّ أصف شعوري لأنّني ببساطة لا أعلمُ ما شعرت حينها

أكمل قائلاً : لا أعلمُ متى أو كيف أحببتك، لكنّي أعلمُ أنكِ أصبحتِ شمساً أشرقت حياتي، وقمراً أنار عتمة روحي وظلام قلبي، لم أرغب بشيء في الحياة سوى أنّ تكوني لي.. تكوني زوجتي، أم أبنائي، وسكن لقلبي وروحي، أعلمُ أنّني لن أقدم لك تلك الحياة المترفة التي تعيشينها الآن، لن أستطيع توفير سوى مسكن صغير وراتب أصغر، لكنّني أعدُك بحبٍّ يسع الأرض والسماء، عشقاً يملأ قلوب من في الأرض جميعاً ويفيض، لن أبخل بشيء عنك يوماً حتى ولو كانت روحي، سأفعل كل ما بوسعي لأجعلك أسعد امرأة في الوجود.

قلت له : شششششششش

أنت لستَ مضطرا لأن تفعل أي شيء، فأنا الآن بالفعل أسعد امرأة في الوجود.

تلعثمت كلماته وقال : هل هذا يعني.... أنكِ.... موافقة؟

أومأت له بنعم وقلبي يصرخ بها داخلي، شعرتُ أن الأرض لا تكاد تحمله ينظر للسماء ويتمتم بالحمد لله.. تغزو السعادة ملامحه وتسري في خلجاته، كل هذا لأنني وافقتُ على الزواج منه، صدقت أمي حين قالت أن الله يحفظ لي نصيبي وسيهدينِ إياه في الوقت المناسب، رجلاً يعتبرني هبة من الله إليه ويحفظني بقلبه قبل عينيه ويفعل كل شيء لرضائي، وأنا من ركضتُ قبلا خلف شخص أعلمُ جيدا أنه يخدعني فقط لأدرء عن نفسي هذا اللقب الذي أُلصق باسمي رغما عني، لم أكن أعلمُ أنّ الله سيهدينِ ما يفوق أحلامي بمراحل، لكنت انتظرت.

إن كنتُ قد رأيت أنّ هادي شخصاً جميلاً فقد أراني بعد زواجنا كم هو رائعاً،

غمرني بحبه وحنانه واهتمامه.

في البداية واجهتنا بعض الصعوبات المادية ورفض رفضاً قاطعاً الحصول على أي مساعدة من أبي، وكم كبر في نظري حينها، وعانينا أيضا من مشكلة تأخرالحمل وكلما كان الوقت يمر كنتُ

أشعرُ بحزنٍ كبير، لم يتفوه يوما بشيء يجرحني ولم يشعرني يوما برغبته في الأطفال، بل كان يحتضنني ويقول لي أنه لا يريد شيء من الدنيا غيري.

حتى أراد الله بعد ثلاث سنوات، ورزقنا بأجمل شيء في حياتنا ابنتنا چودي

وكأنّ الله قد بعث معها مفتاح الرزق

فصدق من قال أن الفتيات تأتي برزقهن، فقد توسع عمل هادي وافتتح شركة لتأجير السيارات، ابتدأ صغيراً ثم كبر المشروع تدريجياً وأصبح يدر علينا الكثير من المال.

ولكن كل هذا لا يهمني فلم أكترث للمال يوماً بل يكفيني هو وحبه الكبير لي الذي يعوضني عن أي شيء، أحمد الله كل يوم على نعمته التي أهداني إياها وأشكر هادي كل يوم لأنه صدق حين وعدني بأنّ يجعلني أسعد امرأة في الكون

*****

لأنني أحببتك

منذ اليوم الأول من زواجهما وهي تعلمُ جيداً أنها ليست أنثاه، ولن تكون يوما، قالها لها صريحة في بداية زواجهما، لا ينتظر منها حباً ولا تنتظر هي منه مبادلتها أي مشاعر، وبأنَّ علاقتهم تتلخص في الزواج فقط من أجل الاستقرار وبناء أسرة، ولا يريد منها سوى الالتزام بواجباتها، في المقابل هو أيضاً سوف يراعي حقوقها على أكمل وجه، لم تحزن حينها ولم تيأس بل قررت أنّ تقاتل من أجل حبها حتى الرمق الأخير وستنتصر في النهاية وتستعمر قلبه للأبد.. تعلمُ جيداً أنَّ طريق الوصول لقلبه ليس سهلاً أبداً، بل طريق طويل صعب ووعر يجب عليها أنّ تتخطاه بصبر إنّ أرادت أنّ تزرع نفسها في قلبه مثلما يجلس هو متربعا في جدار قلبها، فقد أحبته منذ اللحظة الأولى، منذ النظرة الأولى حينما وقعت عينيها عليه عندما أتى لخطبتها رأته يجلس في بهو منزلهم بجانب والدته، تباً كم كان وسيماً، أنيقاً، يخطف الأنفاس، ومغرور أيضاً، هوى قلبها، رحل عنها، تشبث به ولم يعود لها مرة أخرى.

في بداية الزواج بدأت حربها بضراوة، استخدمت كل الوسائل والحيل، بذلت كل جهودها في استقطاب حبه، أغدقته بالمشاعر وكلمات العشق، صنعت بمشاعرها الجياشة فقاعة وردية، استدرجته للغرق فيها، ثم استجدته لمشاركتها إياها، ولم يكن منه إلا أنّه رفضها بكل جبروت وقسوة، بل وهددها أيضاً إنّ لم تكف عن إذلال مشاعرها واستجداء حبه فسيستبدلها بأخرى.

كانت تعلمُ أنّه يستطيع فعل ذلك وبكل سهولة فهي لا تعني له أي شيء.. جبنت واستسلمت، فسطوة قسوته أقوى من أنّ تقاومها، وسطوة قلبها أضعف من أنّ يقبل بالفراق...فتعلمت كيف تكون زوجة محاربة تلتقط أنفاسها وسط كل هذا الركام من المشاعر المتناثرة .

مرت الأيام ولحقت بها الشهور وتبعتها السنين وهي قابعة وحيدة داخل فقاعة مشاعرها، تعيش الحب معه في أحلامها ويشاركها جنون المشاعر عبر خيالها الخصب، فبرغم جفاءه وبرود مشاعره نحوها إلا أنها كانت تعشقه في اليوم ألفُ عام، تعشق أدق تفاصيله ويغرقها الحب نحوه من كل صوب ولم تيأس، تعيش أمله يوماً ما على العثور على مفتاح قلبه الذي ألقى به في أعمق أعماق البحر حينما غدرت به فتاه أحبها ذات يوم ولم يستطع تخطي تلك الخيبة أبداً، ولم يعطيهاحتى الفرصة لمحاولة مساعدته في إخراجها من دهاليز قلبه.

وبرغم عشقها للأطفال ورغبتها في الحصول على ثلاثة أو أربعة أطفال إلا أنها لم تنجب إلا فتاة واحدة فقط برغبةٌ منه بالتأكيد، تلك الفتاة الجميلة التي تجسدت كنسخةً منه، وكأن ثمرة عشقها له قد تشكلت فيها لتعوضها بحبها الطفولي عن افتقادها لحبه الرجولي.

استشعرت مؤخراً تغير طرأ عليه أو ربما اهتمام غريب من قبلهُ، هو لم يسيء لها يوماً لكنه أيضاً لم يهتم يوماً ولو اهتماماً طفيفاً، لذا فقد كان مثيراً للشبهات بالنسبة لها، وأيضاً بدا كأنَّه يتصرف بحذر غير ملحوظ دون أنّ يلفت الانتباه.. لا يعلمُ أنَّ قلبها يشتمُ تفاصيله من البُعد، أيقنت أنَّ هناك شيءٌ غريب ولكن انتابها الخوف من أنّ تعرفه، حاولت منع نفسها من البحث وراءه ولكن قلبها لم يستطع، أنهكها بفضوله فأخذت هاتفه ذات ليلة وليتها لم تفعل.

هال قلبها مما رأته، يحادث امرأة تدعوه بكل كلمات الحب والغرام، ويا للغرابة، ردوده عليها جافة باردة كبرودة معاملته لها تماماً وكأنَّه لم يكفيه عقابها على فعلاً لم ترتكبه بحقه ففتش عن امرأة أخرى تحبه ليقتص لقلبه الجريح منها.

سمعت من قبل جملة (رأت العذاب ألوان) وهل للعذاب ألوان حقاً !!!.....

نعم فقد تشكل وجعها بكل ألوان العذاب في الليالي اللاحقة، لم تستطع إلا أنّ تتألم، فهي ليست نداً للمواجهة لأنّها وبكل بساطة ليست مستعدة لتقبل نتيجتها....

ما فائدة المعرفة إذاً !!!.. لم سعت لها؟.. هل جعلها الحب مازوشية تهوي تعذيب نفسها؟؟ أو ربما اعتقدت ببلاهة بأنَّ ما تشعر به ما هو إلا إنذار خاطئ وبأنّها لن تجد شيء ويطمئن قلبها.

شهرين كاملين وهي تتألم، يتقلب قلبها على صفيحٍ ساخن، تستلم لرغبة الانكسار، ثمّ تتقمص دور المحاربة صباحاً حتى لا يبدو عليها شيء، وكأنَّ كل العذاب الذي عاشته لم يكن كافياً بعد ليصفعها ذات ليلة باعترافٍ دامي ذبح به قلبها حين أخبرها برغبته في إنهاء زواجهما..

لا يريد الاستمرار، يريد الانفصال عنها، كلمات قاسية موجعة، أسهم من نار تخترق قلبها، تضرم به ألف حريقٍ وحريق، لم تتحدث، لم تستطع النطق، بل لم تستطع التنفس، ثمّ ماذا كانت ستقول؟ هل تستجديه ألا يفعل؟ لن يرجع بقراره أبدا، تعلم ذلك، هل تتذلل له ليتركها على ذمته حين يتزوج من أخرى؟ لن تستطيع التحمل، فقد كانت تموت كل ليلة حينما كان يتحدث فقط في الهاتف، ماذا سيحدث لها إذا وهي تعلم أنّه ينام بين أحضان أخرى! لا والله لن تستطيع.

فجر قنبلته في وجهها، ونام هو بسلام، تركها لحزنها يطبق على صدرها وجدران الغرفة تضيق وتطبق على روحها، لم تبكي، لم تذرف دمعة واحدة فقط، شاردة الذهن، تسبح في ذاكرتها..... تتذكر حين أحبته، وحين قررت أنّ تجعله يبادلها العشق، وحين خذلها، وحين استسلمت خوفا من خسارته، وها هي تخسره في النهاية.

حاولت تشغيل عقلها المتوقف من سنوات حتى أتتها فكرة تستطيع من خلالها الحصول ولو على جزء بسيط من حقها المهدور.

عاد من عمله معتقداً أنّها تركت المنزل، لكنّه وجدها في انتظاره، جلس أمامها في برود منتظر ردة فعلها المؤجلة من الأمس والتي يتوقعها الآن، منتظر أنّ تلومه، تعاتبه، تصرخ به وتنهار باكية، لكنّها استقامت بكل هدوء ورقي وجلست بجانبه احتضنت كفه بين كفيها ونظرت لعينيه نظرةُ عشقٌ كانت تخفيها في أعماقها، رحمت انتظاره وتحدثت أخيراً:

منذ اليوم الأول من زواجنا وأنت تعلمُ مدى عشقي لك، وتعلمُ بأنّني حاولتُ صعود سلم مشاعرك لوضع ولو جزء بسيط مني داخل قلبك، لكنك منعتني من التحليقُ في فضاء عشقك ومن الركض فوق سُحب السعادة الوردية التي كنتُ أتوق لإحتضانها والغرق فيها... سجنت عشقي بداخلي ولم أعارضك، دفنت تلك الأنثى العاشقة بين الضلوع، وكنتُ الزوجة فقط... الزوجة التي أردت، التي تقوم بكل واجباتها علي أكمل وجه، لسنوات وأنا أنفذ رغباتك، وسأنفذ آخر رغباتك أيضاً، سأوافق على الانفصال دون أدنى اعتراض، لكن لدي طلب واحد فقط اعتبره مكافأة نهاية الخدمة، أريدك أنّ تؤجل الطلاق لشهر واحد، وخلال هذا الشهر لن ترفض لي أي طلب أطلبهُ منك، أريدُ أنّ أحيا الحُلم الذي لطالما راودني لسنوات، أريدُ أنّ أتلمس بيدي السعادة التي كنتُ أراها دوماً تسكن بين النجوم.

جرحها وهو يفكر ويشرد لبعيد، ألتلك الدرجة يصعب عليه أنّ يتحملها شهراً!! أنّ يحقق رغباتها لمدة شهر فقط... أشفق على قلبها الممزق وأجابها أخيراً... بموافق.. شعرت بجرحها النازف يلتئم فجأة، وبأنَّ أحلامها وأمانيها تجمعت وهي تحمل إليها حروف كلمة موافق..تغلفُها بحب.. وتحملها بعشق.. وتقدمها لقلبها كهدية بداخلها سعادة الكون.. يبدو كلُ شيء مختلف، تلون الكون بلون السعادة، تلونت الجدران بلون الحب، حتى الأثاث يصرخ عشقاً عندما يمتلىء داخلنا بالحب ينعكس على رؤيتنا للحياة فكل شيء حينها يبدو جميلاً ونقع في عشق كل شيء حولنا

أشرقت شمس الصباح وأعلنت بداية شهر الحب.. نعم شهر الحب هكذا أسمته، ستعيش معه مالم تعشه، وتروي ظمأ قلبها ومشاعرها، ستصنع من كل لحظة معه ذكريات رائعة تغلفُها وتُخلدها في ذاكرة قلبها لتستنشق من عبير حبها أكثير الحياة لأيامها القادمة..

ذهب خالد إلى العمل، ورغم استيقاظها لم توقظه، ولم تحضر له الفطور كعادتها وتركض هنا وهناك لتلبية كل طلباته، أرادته أنّ يعتمد على نفسه، فهي منذ اليوم ستغير نمط حياتها، وتفعل ما يسعدها

فقط، بعدما رحل تركت الفراش وجلست تفكر وترتب برنامج يومها، ارتدت ملابسها وأيقظت غادة ابنتها الجميلة وذهبت لتودعها عند والدتها هذا الشهر ليخلو لها البيت معه...

ذهبت لمصفف الشعر، لم تصدق أنّها ستتخلى عن شعرها الأسود الطويل الذي احتفظت به طوال سنوات عمرها، لكنّها تريد تغييراً شاملاً، فلا بأس ببعض التضحيات، قصه لها المتخصص حتى لامست أطرافه أكتافها، ثمّ صبغه باللون البني، ونثر فيه بعض الخصلات الذهبية، نظرت لنفسها في المرآة، لم تصدق نفسها، تبدو رائعة وكأنَّ قطار العمر عاد بها لخمسّ سنوات ماضية، دخلت إحدى محلات بيع المستلزمات النسائية.. تنظر هنا وهناك، حائرة، فهي لم تشتري أيٌّ من تلك الأشياء منذُ زواجها، هي في الأساس لا تستخدم كثيراً مما تملكه، اشترت العديد من قمصان النوم، والملابس الداخلية المثيرة، وكأنها عروس تتجهز لعرسها، وابتاعت العديد من فساتين السهرة أيضاً، وأخذت تتبضع لساعات، عادت للمنزل محملة بالأكياس وبسعادة لا توصف.... صدق من قال أنَّ أهم أسباب سعادة المرأة هو الشوبنج.....!

رتبت المنزل بحب، وتفننت في صنع وجبة شهية محملة بأنفاسها العاشقة، نثرت أوراق الورد الحمراء، رتبت أطباق الطعام على الطاولة التي تحتضنها أضواء الشموع وانتظرته.. لم تنتظر كثيرا، فقد فتح الباب وهو يتعجب من الظلام، تحول تعجبه لذهول وتوقفت الكلمات في حنجرته، أبت أنّ تخرج وفتح فاه ببلاهة حينما وقعت عيناهُ على هذا المنظر، وهو يراها تقف منحنية بإغواء متكئة على كرسي الطاولة بفستانها الأحمر القاني عاري الصدر والذراعين بفتحة طويلة على إحدي جانبيه تظهر حذائها المماثل للون الفستان بكعبه العالي الرفيع، وشعرها الذي يتلألأ على ضوء الشموع كأشعة الشمس الذهبية الهاربة من إحدى النوافذ.... أغمض عينيه وفتحها مجددا وكأنَّه يتهمها بالكذب وحينما تأكد من ادعائها تحدث أخيراً قائلاً بغباء : ما هذا.....!!! ابتسمت قائلة : إنه غذاء روما نسي

على ضوء الشموع..... هل لديك مانع؟ هيا فقد حضرتُ لك الحمام وهناك ستجد بيجامة جديدة معلقة بانتظارك أسرع والحقني فأنا أتضور جوعاً.

لا يدري كيف أستحم أو أرتدي تلك البيجامة الرائعة، لم يشعر إلا وهو يسحب الكرسي المقابل لها، يتناول الطعام وتتناولها عيناه، لا يصدق نفسه هل هي هذه المرأة نفسها التي كان يريد التخلص منها، أنهوا الطعام، وأحضرت كوبين من العصير، تتحدث معه وكأنَّه غائب عنها لسنوات، تسرد له قصص مضحكة، تبتسم وتمزح، تعانقها عيناه وتستمع لها أذناه، وعقلهُ في مكانٌ آخر منجرف وراء رغبته المشتعلة بها، لم يشعر بنفسه إلا وهو يحملها بين ذراعيه للمرة الأولى يسرع بها لغرفتهم ليطفئ رغبته التي لم يحاول إخفائها، وللمرة الأولى هي أيضاً لم تحاول إخفاء رغبتها به ولم تخجل من إظهار مشاعرها له، ذابت بين أحضانه، ومارست سلطتها الأنثوية على رجولته، اقتصت لكل المرات السابقة الباردة والروتينية، وبعد انتهاء عواصف الرغبة تشبثت به ولم تعطيه فرصة تركها ككل مرة نامت بين أحضانه، احتضنت أنفاسها أنفاسه، تروي ظمأ روحها المتعطشة، وتشبع جوع قلبها، وتطلق العنان لمشاعرها السجينة لتركضهاربة من داخلها وتغزل خيوطاً عشقية حول قلبه.

في اليوم التالي فاجأته باتصال لمقابلتها ليتناولا الغذاء بالخارج، وأعطته اسم المكان هو مطعماً مخصص للعشاق، دائما ما كانت تمر عليه، وتتمنى أنّ تحتضنهم إحدى طاولاته، وها قد أتى اليوم، كلُ شيء بالمكان يعبر عن الحب، بل يدعو للحب.. الجدران تزينها القلوب الحمراء، والورود الحمراء تزين الطاولات، وأوراق الورد منثورة بالأرضيات، وفي منتصف المطعم سرايا ضخمة تتدلى منها قلوباً حمراءكبيرة متلألئة، تغمر المكان بضوء أحمر هادئ يضفي الحميمية بالقلوب، وكأنَّه كوكباً للعشاق تفوح منه رائحة الحب لتعطر قلوب المحبين.

بعدما تناولوا الغذاء على وقع أنغام موسيقية هادئة أكملت اللوحة الرومانسية، لم تستطع العودة للمنزل، أرادت أنّ تنثر سعادتها في كل مكان، أنّ توزع طاقة الحب المتفجرة داخلها على كل الناس،

لساعات وساعات يسيروا في الطرقات، يضحكون ويمزحون، ولا تعلم أقدامهم إلى أين هم ذاهبون.

يتركها قلبها ويحلق في الأفق من فرط سعادته، وخالد لم يعترض ولم يتذمر، لا تعلم، هل بسبب وعده بأنَّه لن يرفض لها طلبا، أم أنّ المكان قد أصابه بعدوى الحب.

عادت للمنزل محملة بطاقة حب تكفيها لسنوات، وفي الأيام التالية غمرته بالحب الذي كانت تختزنه داخلها، تذوقت طعم الحياة، صارت أجمل، أشهى، شعرت بتغيره أيضاً، باهتمامه، بابتسامة جديدة غزت ملامحه، بسعادة غريبة ملأت جوارحه، لا تعلمُ كيف تغير هكذا بين ليلةٌ وضحاها، هي لن تسأل، هي فقط ستعيش ما تمنته وحلُمت به وأصبح واقعاً بين يديها، حتى لو لأيام قليلة.

في إحدى الليالي لم تستطع النوم ظلت تنظر إليه طوال الليل وكأنّها تختزن ملامحه لتستدعيها حين تشتاقه، أفاقها صوت زخات المطر تداعب النافذة الزجاجية فركضت إليها، فتحتها عن آخرها لتملأ رئتيها برائحة الأمطار، يا الله كم تعشق المطر، وأتتها فكرة مجنونة، فأيقظته قائلة : هيا خالد هيا استيقظ، أريدُ أنّ أخرج الآن.

فاعتدل يفرك عينيه وينظر في ساعة هاتفه ليجدها تخطت الثانية عشرة، فقال لها :

هل جننتِ!! نخرج الآن.... ولما!!!.

رفعت الغطاء عنه وأرغمته على الوقوف قائلة : لأنَّني أريدُ ذلك، هيا أسرع.

انتزع يده منها وقال: نامي الآن وغداً عطلة سنخرج مثلما تريدين.

مطت شفتيها بغضب مصطنع وقالت: لا سأخرج الآن وإنّ لم تأتي معي سأخرج

وحدي... تركته وذهبت نحو الخزانة تغير ملابسها فتتبعها يائساً، بدلوا ملابسهم وهو يستغفر

الله كل ثانية ولا تعلم كيف وافقها من الأساس، جلست بجانبه في السيارة تشعر بسعادة غريبة وحماس كبير وكأنّها داخل مغامرةٌ ما وهو يزفر ويزمجر جانبها بغضب :

لا حول ولا قوة إلا بالله.

فقالت بحزنٍ مصطنع : لقد وعدتني أنك لن ترفض لي طلبا طوال الشهر.

فقال : لم يتضمن اتفاقنا الخروج منتصف الليل أثناء المطر وأنا أكاد أتجمد أجوب الطرقات الفارغة من دون سبب، فقط لأنّك تريدين ذلك.

ضحكت بصوت عالٍ ثمّ احتضنت ذراعه ونامت عليه وقالت: ليس بدون سبب فقد جعلتني الآن أسعد امرأة في الوجود.

قال لها : ماذا تريدين أنّ تفعلي الآن.

فكرت قليلا ثمّ قالت : اممممم.. أريد أيس كريم.

مروا بأكثر من محل وكلهم مغلقين، طلبت منه العودة للمنزل لكنها تعجبت من تصميمه ورفضه للعودة إلا بعد أنّ يحقق لها مطلبها رقص قلبها من فرط اهتمامه، ساعتين كاملتين يبحث من أجلهان حتى وجد محلاً يكاد يغلق أبوابه، أسرع بالنزول وأحضر لها أكبر كوبين من الأيس كريم رأتهم في حياتها، أعطاهم لها مع ابتسامة حب، احتضنت الكوبين بسعادة وأخذت تلتهم كوبها باستمتاع، كان مذاقه ألذ من كل مرة أكلته فيها من قبل، فقد كان بنكهة الحب.

مروا بجانب كوبري فطلبت منه التوقف، ثمّ نزلت تركض نحو السور فتتبعها مرغما وصرخ : ماذا تفعلين؟؟ لن نجلس هنا في تلك الساعة.. قبلت وجنته وترجته قليلا فاستسلم لها وحملها، وأجلسها على السور وهو يتلفت حوله قائلاً : هل تعلمي؟ ليس لدي أي شيء يثبت أنك زوجتي، إن مرت سيارة شرطة الآن سيصحبوننا معهم.

ضحكت وقالت : لا يهم طالما سيضعوننا في زنزانة واحدة.. فضحك هو الآخر وصعد وجلس بجانبها غير مكترث بشيء، فلا شيء أهم مما تحمله تلك اللحظة من جنون وسعادة، أخذوا يأكلون ويمزحون ويلونون وجوه بعضهم بعض بالأيس كريم، وبرغم أنَّ الأمطار كانت قد توقفت إلا أنها

شعرت بقطرات باردة تلسع وجنتها، مدت كفها للأمام.. فاحتضن بضع قطرات، بدأ المطر يشتد رويداً فقفز خالد أرضا، ثم حملها وأنزلها، وخلع جاكته ليحميهم من الأمطار، أمسك بيدها وركضوا نحو سيارتهم ضاحكين، ابتسم قلبها بقوة فكم تمنت أنّ تركض معه تحت الأمطار

وكأنَّ الله أراد أنّ يحقق لها كل أمانيها الليلة.. مدت يدها من النافذة تشاكس الأمطار بسعادة، فطلب منها خالد أنّ تغلق النافذة حتى لا تمرض لكنها أبت فأوقف السيارة جانباً وانحنى فوقها ليغلق النافذة، ارتجف قلبها وأغمضت عينيها حينما اقترب منها، وكأنّه ليس هو نفسه زوجها الذي تعيش معه من سنوات، تشعر به شخصاً جديداً مختلفاً.. الشخص الذي لطالما تمنته، اضطربت أنفاسها وتشنج جسدها حين شعرت بأنفاسه الدافئة تقترب من أنفاسها، وشفتيه تحتضن شفتيها في قبلة لطالما حلُمت بها، قبلة يحكمها الشغف والجنون، قبلة بشرع الحب لا بشرع الزواج.

هكذا تريده محب، حنون، مجنون... وياليت كل ما يريده المرء يدركه.

أصبح كل يوم أجمل من سابقه، كل يوم يحمل أجمل الذكريات تحفرها في ذاكرة قلبها.

اليوم مختلف لا تعلم لما تريد استفزازه !! إثارة غضبه !! طلبت منه مرافقتها للتبضع لساعات وساعات تسحبه وراءها من محلاً لآخر، لا يبدو عليه أي انزعاج هادئاً صابراً لا يتذمر، مذهولة هي ! كيف صمد حتى الآن ؟

خارت قواها من السير وهو لا يصدر عنه أي رد فعل بعد.... بكيد النساء قررت أنّ تتبع وسيلة أكثر فاعلية، وهي تسأل البائع عن بعض الأغراض مزحت معه، ثمّ تلت مزاحها بضحكة رنانة.... حينها كان لها ما أرادت وأكثر، نظرت للذيا بجوارها وهو يحدق لها بعينين متسعتين مشتعلتين ودماء الغضب تتصاعد على وجهه، أمسك معصمها بقبضة من حديد، وسحبها معه للخارج، دفعها للدخول في السيارة ورمى حزمة الشنط بالكرسي الخلفي، جلس بجوارها يتحدث بغضب تارة ويصرخ بوجهها تارة أخرى، وهي تنظر له ببرود واستسلام أما داخلها فكان يحكي شيء آخر، هل

كانت تلك غيرة ؟ هل يغار عليها ؟ ام أنّه فقط يغار على رجولته، فهي في النهاية زوجته ! بعدما وصلوا للمنزل، منتظراً منها أي اعتذار أي كلمة تنطقها غير هذا البرود الذي يزيد غضبه اشتعالاً، لكنّها حين نطقت قالت بلا مبالاة : بسبب همجيتك أنسيتني إحضار طلاء الأظافر.

نظر لها شزراً، ثمّ اختفى من أمامها حتى يقيها غضبه، ابتسمت ابتسامة واسعة، لا تعلمُ حقاً سرّ تلك النشوة التي تملأها من قمة رأسها حتى أخمص قدمها.

هل الشجار معه رائعاً لتلك الدرجة ! وهي من أفنت عمرها تتلاشى أي شيء يغضبه، يا لغبائها، لم تكن تعلم أنَّ الشجار بين الزوجين له متعةٌ خاصة لهذا الحد، ما أجمل الشجار وما أحلى الخصام وما أروع الصلح، لكنّها لن تصالحه الليلة، ستتركها للغد فهي تريد أن تقيم مراسم مميزة للصلح لتستمتع به مثلما استمتعت بالشجار.

في اليوم التالي طهت له ما يعشق، زينت الشقة بالورود، ارتدت فستان وردي قصير،ونثرت بعض الورود بشعرها فبدت كالأميرات، انتظرته ليحضر مؤكد سيبدو غاضباً ، لكنها تعلمُ جيداً كيف سترضيه اليوم وتعوضه عن غضبه ليلة أمس، لكن ما حدث كان مغايراً تماماً لما توقعت....

دخل الشقة، اقترب منها، أمسك يدها وأخرج من جيبه علبة طلاء الأظافر ووضعها بها قائلا : لا أعلم اللون الذي تفضلينه فأحضرت اللون الوردي، أعتقد سيليق ببياض بشرتك. نظرت له بحب قائلة : لكنني لا أستطيع وضعه، أفسد مظهره دائماً.

أمسك بيدها وأجلسها، فرد كفيها على ركبتيه ووضع لها طلاء الأظافر بمهارة، وأخذ ينفخ أظافرها حتى جفت، شعرت حينها بآلاف المشاعر دفعة واحدة، شعرت بحبه يتضاعف بقلبها آلاف المرات، شعرت أنها طفلته حبيبته، بنهرٍ متدفقا من الحب يسري في عينيه، بدفء يحتويها، يزيلُ جليد سنوات من الجفاء، لم تتخيل يوما أن يهتم بأصغر تفاصيلها ويدللها ويحتويها بهذا الشكل. قطرةٌ حارة سقطت من عينيها لتحتضن كفه، نظر لها حينها وجد دموعها

منهمرة فقال باستغراب : لم تبكين؟؟

نزلت على الأرض بركبتيها تقابله ألقت بنفسها بين أحضانه قائلة :

لم أعتاد الاهتمام منك يوما، قلبي لا يتحمل كل هذا الحنان الذي تغدقني به!!.

مسد شعرها واحتضنها بقوة ولم تخرج من أحضانه تلك الليلة، واضعة رأسها فوق صدره أذنها تستمع لعزف نبضاته، وهل هناك أروع من موسيقى قلبه لتستمع إليها !! تمتمت قائلة : أحبك بعدد ذرات الهواء، بعدد قطرات المطر، أحبكَ كطعم ملامسة النجوم، كفرحة الجلوس فوق القمر، أحبكَ كشعوري بمداعبة وجه الشمس، كرقصي فوق الغيمات الوردية فوق السحب الرمادية، أحبكَ خارج حدود الزمان والمكان ..رفع رأسها لينظر لعمق عينيها قائلا : منذ متى تلقين شعراً.

قالت تعاتبُ عينيه : لقد منعتني من مبادلتك الغرام، وكان حبك يتضاعف بداخلي يوما بعد يوم، ومشاعري تتراكم، فكادت أن تغرق روحي، وكدتُ أموت عشقاً، فقررت أن أُنثر بعضاً من حبك عبر الكلمات، وأغزل بعنفوان مشاعري حروفاً عشقية تعبر عن مكنونات قلبي وتوق روحي، فامتلأت دفاتري بفائض مشاعري، ومازال قلبي يحاول النجاة من الغرق في بحر حبك.

ويحك أيتها الأيام السعيدة دوما ما ترحلين سريعاً، تغادريننا وكأنَّك لحظات، مرَّ شهرُ سعادتها كالحُلم الجميل الذي لا ترغب في الاستفاقة منه، لكنّ لكلُّ شيءٌ جميل نهاية وها قد حانت تلك النهاية، توقعت منه أي رد فعل مغاير بعدما عاشوا سعادة لا تستطيع الكلمات حتَّى وصفها، لم تكن تتوقعها أو تتخيلها، بعدما شعرت بتغيره الكبير، بقلبه الذي أطلق العنان لمشاعره للتعبير عما يعتمر بخلجاته، لكنّه لم يفعل ما تطلعت إليه، ما أرادته بكلُّ جوارحها، صامتاً منتظراً، وها هي تلبي نداء صمته، تجمع أغراضها، لن تترجاه ولن تحزن أبداً، وكيف يكون للحزن مكان في قلبٌ تشبع بالسعادة واغترف منها حتى امتلأت ضفتيه، سيقتات قلبها على تلك السعادة أبد الدهر، لكنّها فقط رجفة الفراق، أشواكٌ تدغدغ قلبها الصغير، توشي له لن تراه..... لن تعد تراه لملمت أغراضها

وبعثت إليه برسالة تخبره أنَّها تحضرت للرحيل وتنتظره لإيصالها ..أجابها.... بحسنا ليتصدع غشاء قلبها الرقيق ويصدر عنه أنات ضعيفة متوجعة.. انتظرت... وانتظرت تأخر عنها كثيراً ليزيد من عذابها أضعاف، تسرع لتذكر نفسها بأحداث الشهر الماضي التي غلفتها بعناية واحتفظت بها داخل قلبها لتغزو حينها الابتسامة شفتيها وتحاصر بالذكرى أنين قلبها الموجوع.

حضر أخيراً، قابلها بملامح جادة جامدة، قابلته بابتسامة كاذبة مدعية، حمل حقيبتها دون حديث، تتبعته للسيارة وركبت بجواره والصمت التام يغلف حيز محيطهم، أشاحت بوجهها تنظر من نافذتها لا ترى شيء مما يجري بالخارج، هي فقط تخشى من النظر نحوه حتَّى لا تتعلق ملامحها به رافضة تركه، خائفةٌ من ألا تتزحزح عينيها من محيط عينيه، من أنّ يقفز قلبها من بين ضلوعها ويستقرُ بين أحضانه ويتشبث بها للأبد، نطق أخيراً ليكسر حيز الصمت المميت، ويهدئ من روع مشاعرها الثائرة في سكون قائلاً : هل نستطيع التحدث قليلاً.....!

التفتت ناحيته بقلبٍ مرتجف مضطرب لم تستطع النطق أومأت له فقط بالإيجاب..

أوقف سيارته جانب الطريق، طلب منها النزول للجلوس بأحد المقاهي تتبعته في صمت، دلفت للداخل ورائه، كان فارغاً تماماً إلا منهم، اصطحبها لطاولة في المنتصف، جلسوا، متأهبة لما سيقول بكلُّ جوارحها، أمسك أعلى أنفه بإصبعيه وتنهد تنهيدة قوية زادت من اضطراب نبضاتها، اقترب منها وقال هامساً:

هل تعلمي شيئاً، حينما تزوجت بكِ كنتُ واضعاً جداراً عملاقاً، ساتراً ترابياً كخط برليف أمام قلبي ليقيني من أي مشاعر عدوة، تزوجت فقط إرضاءً لأمي ولأكمل نصف ديني، عشتُ معك، غمرتيني بحبك، باهتمامك، بمشاعرك الجياشة اهتز جداري خشيتُ عليه منكِ، تعنتُ معك، قسوتُ عليكِ لتكفي عن مبادلتي الحب، أعلمُ أنكِ حزنتي كثيراً حينها وتسائلت؟؟

لما أفعل ذلك رغم أنَّ أي رجل يتمنى من زوجته الحب وشغف المشاعر؟؟ أما أنا فكنت أخشى الحب، توقفتِ أنتِ عن التعبير عن مشاعرك قولاً لإرضائي، لكنّني رغم ذلك كنتُ أشعرُ بحبك، بخوفك عليَّ، بلهفتك، باشتياقك، بعشقك الذي تعبر عنه كلُّ جوارحك، انهار جداري حبكِ كان كالمياه المندفعة التي أوقعت بساتري الترابي، أصابني الذعر أكثر، قررت أنّ أثبت لنفسي بأنَّ هذا ليس سوى وهماً وبأنكِ لا تعني لي أي شيء، تعرفت على فتاة عبر الإنترنت.. تحدثنا لفترة، لم أشعرُ معها بشيء، تركتها وتعرفت بأخرى لأكتشف أنَّ الفتاة لم تكن المشكلة، بل المشكلة عندي أنا، كنتُ أنهي حديثي البارد معها وآتي لأستكينُ بين أحضانك، حينها فقط تأكدت بتورط مشاعري بالكامل لكنّني أبيتُ الاعتراف لنفسي بذلك فقسوت عليها أكثر وعليكِ أيضاً، طالبتك بالانفصال، قررت بتر علاقتنا والهروب بعيدا، كنتُ أتوسم في الهروب، النجاة، ليفاجئني مطلبك بأنّ نبقى معا شهراً آخر، أقسم لكِ حينها بأنك رددتِ الحياة لقلبي ولكل جوارحي انبثقت بداخلي سعادة لا أعلمُ لها مصدر ولا أعني لها معنى، لكنّي علمتُ فيما بعد سرُّ سعادتي حين أغرقتني ببحر من العشق سقط فيه بإرادتي، اعترفت لنفسي بأنّني خسرتُ كلُّ حصوني منذُ اليوم الأول معك، واجهتُ مخاوفي حاربتها بضراوة..انتصرت وتغلب قلبي أخيرا على جدار الخوف الذي صنعته معاناة الماضي، وشفيتُ تماما، وها أنا أعترف أمامك، لقد أعدتني لمملكة الوجود بعد أن ضللت الطريق، و الآن أنا شخصٌ جديد، شخصٌ مختلف، شخصٌ يحبك، يعشقك، يريدُ البدء معك من جديد ليعوضك عن كل أذى سببه الشخص السيء الآخر... كانت تستمع إليه ودموعها المنهمرة تحتضن دموع قلبها الذي كان يشارك عينيها البكاء، وما أحلاها من دموع، دموع الفرح، دموع السعادة..

أشار بيده فالتف حولهم بعض العمال، واحداً وضع قالب حلوي كبير على الطاولة والآخر يحمل صينية مزينة تحتضن علبة حمراء من القطيفة، التقط العلبة، مد يده إليها، أوقفها ثمَّ انحنى أمامها على ركبةٌ واحدة قائلاً : هل تقبلي الاستمرار في الزواج مني؟

وضعت يدها على فمها تكتم شهقاتها، فاستقام وسحبها بقوة، غلفها بذراعيه لتسكن أحضانه كالطفلة الضائعة التي وجدت أخيراً الملجأ والأمان في حضن أبيها.

يحدث أحياناً أن تتوجع قلوبنا فنغلفها بغلاف القسوة خوفاً من تكرار الجرح، نغلقها في وجه أي حبٍ جديد.. يطرق أبوابها دون أنّ نعلم أن هذا الحب قد يحمل الشفاء في يد والسعادة والمستقبل في اليد الأخرى.. وقد يحدث أحياناً أنَّ نعشق بكلُّ جوارحنا ونتعهد بالدفاع عن هذا الحبّ مهما كانت الظروف، ومع خسارة أول جولة نستسلم ونجبن دون أنَّ نعلمُ أنَّ حق الحبّ علينا هو الدفاع عنه بكلُّ ما أوتينا من عشق.

*****

أوان الورد

وردةٌ أنا.... قالوا عني تشبهينها بجمالها، بعبقها، بأسرها للقلوب، بألوانها الزاهية التي تنثر الفرح والبسمة، لعين كلُّ من يراها، منذُ تفتحت أوراقي صرتُ عاشقة، هربت من القلب نبضة ورحلت من فورها خلفه، ابن خالتي الذي يكبرني بعشر سنوات كان يبعثر أنفاسي، يزلزل مشاعري، ويتوقف قلبي متمرداً حين يقترب، يمد يده ليصافحني، يبتسم تلك الابتسامة التي تخدرني، تبعثرني، تسرق أنفاسي معها ولا تعيدها إلا بعد حين، لكنّه لم يكن يراني .... أبداً لم يراني، كنتُ بعينيه مجردّ طفلة، لا تعنيه في شيء، لم يكن يدرك حجم مشاعري نحوه، ولم يرى كيف أنظر إليه بقلبي قبل عيناي، ولم يعلم أنَّ أحلامي وطموحاتي ورغباتي تتمثل فيه هو....

مرت السنين، كبرت وكبر حبه وعشقه داخلي أضعاف وأيضاً اليأس والإحباط وصل لمنتهاه، فقد فقدت الأمل تماما في أنّ يشعر بي أو أنّ يلاحظني من الأساس حين علمتُ أنه عشق فتاةٌ ما لكنّها تزوجت من آخر ومن وقتها عزف عن الزواج، أما أنا فمنذُ إنهائي لدراستي فعروض الزواج لم تكن تتوقف لكنني دوما ما كنتُ أعثرعلى حجةٌ ما لإفساد الأمر، لم أرغب في الزواج من شخص وقلبي ومشاعري ملكٌ لآخر، كانت أمي تعلمُ بمشاعري تجاهه وكانت تنهرنِ دوماً وتقول بأنَّني أضيع عمري هباءً في انتظار وهماً لن يحدث أبداً، كانت كلماتها تصيبني في مقتل، وما كان مني سوى البكاء وإغماض عيني، والهرب نحو عالمي الخاص الذي صنعه خيالي ليحي به قلبي حلمه الجميل ويرتوي بحبه و إهتمامه الذي لم يستطيع العثور عليهم في عالم الواقع ..حتّى أتى اليوم الذي تغيرت فيه حياتي وانقلبت كلُّ موازيني، صار الخيال واقعاً والواقع خيالاً، عندما حضرت إلينا خالتي وهي تحمل لي بين راحتيها سعادتي المفقودة وحُلمي الضائع، طلبت يدي لابنها الذي يستعمر قلبي ويهذي خافقي باسمه ليلاً نهاراً.. لم تصدق أذناي ما سمعت، ولا عيناي ما رأت، ولا قلبي ما شعر به، حينها صُدمت جميع حواسي، فالحُلم الذي كان يلوح في الأفق البعيد أضحى واقعاً بين لحظة وأخرى، جل

رغباتي صارت في متناول يدي، هَجمتُ على خالتي أقبلُ رأسها، وجهها ويديها، لم أكترث باعتقادها في أو بتوبيخ أمي، لقد ملكتُ العالم الآن، لم أعد أريد شيء، ضحكت خالتي وقالت لأمي اتركيها يا غبية، فأنا أعلمُ منذُ زمن كم تحبه وتعشقه، ولن أجد له خيراً منها، لذا فعلت المستحيل حتّى لا يتزوج غيرها.. أوجعتني كلماتها بأنَّ هي من أقنعه بالزواج مني، أسرتها في نفسي ولم أكترث، فحين يتعرف عليّ ويلمس قلبه مدى حبي له لن أحتاج لوساطة أحد حينها لأمتلك قلبه..

كانت فترة خطوبتنا قصيرة جداً، لم يكن يبادلني الأحاديث ولا الأحاسيس وبذات الوقت لم يكن يؤخر عني طلباً، يحضر لي كلُّ ما أشاء وأطلب ويغمرني بهداياه، لكنّني لم أشعرُ أنَّه يريدُني حقاً أو بأنَّه سعيداً معي، كانت لقائتنا القليلة يسيطر عليها الصمت أو الحديث في تجهيزات الزواج ولوازم العرس، لم يحدث بيننا أي حديث خاص، لم يقل يوماً كلمة رومانسية واحدة، وأنا أيضاً خجلي منعني من أن أبادر بأي حديث أو ربما هالة حضوره كانت تطغي على جلُّ مشاعري وتلجم كلماتي في حلقي..جاء يوم عرسنا، كنتُ أطير فرحاً، لم تسع الدنيا بأكملها فرحتي، كنتُ أحلقُ بين

السحابات الوردية، نما لي جناحان أنافس بهما أسراب الطيور علواً، وتلون وجهي بأروع الألوان، كأنّني أنافس الفراشات جمالاً، أردتُ أنّ أنثر فرحتي على العالم أجمع، فهذا يومي وتلك ليلتي، سيكون لي وأكون له.. عندما احتضنت كفه كفي عزفت نبضاتي لحناً صاخباً طغى على صوت طبول الزفاف، كانت ابتسامتي تملأ المكان، تنثر الفرح بقلوب المدعوين، وتشحن قلوبهم بطاقة حبٍ هائلة، لكنّني حين التفت نحوه ورأيت علامات الحزن بادية على ملامحه وكأنَّه مساقاً لمأتم لا لحفل زفافه، انتفض قلبي وارتجفت أوصالي، كان يرسم ابتسامة زائفة على وجهه ليحاول إيهام الجميع بسعادته، ويبدي ما يغاير تماما، ما يعتمر بداخله وكأنَّه مضطراً لهذه الزيجة، لكنّني كنتُ أشعرُ به جيداً، فمن يشعر به أكثر مني ويعلمُ ما بداخله مثلي، تبدلت فرحتي بخوفٍ شديد ليس له حد، وقلبي ينذرني بالأسوأ..

انتهى العرس ولم يتحدث بكلمة واحدة معي ولا حتّى مبارك، دخلنا الشقة وانكمش قلبي، داخلي فجأة، تغيرت نظرتي لشقة أحلامي، منذُ أيامٌ فقط كنتُ أراها جنتي على الأرض، أما الآن أراها بشكلٍ مختلف، أشعرُ بها سجناً أو منفى لتلك الأحلام، موقعاً لجريمة ومقبرة جماعية سيتم فيها ذبح قلبي بدمٍ بارد وقتل أحلامي وسعادتي ودفنهم جميعاً معاً، وشعوري دوماً لا يكذب.

تتبعته بنظري وهو يجول في الشقة ذهاباً وإياباً دون هدى، جلستُ، على الأريكة أنظر له، وانتظره ليختار الطريقة الأقل إيلاماً ليقتلني بها، توقف خافقي حين نطق، بدأ الحديثُ قائلا بتردد :لا أعلمُ من أين أبدأ حديثي أو كيف أشرح لكِ الأمر، لكنّني لا أملكُ أي خيار آخر، فعندما يتعلق الأمر بالقلب تتلاشى الخيارات، ويعلو صوت القلب فوق أي منطق أو عقل، كنتُ أحبُ فتاةٌ، منذُ زمن زوجها أهلها غصباً، لم أستطع نسيانها ولا هي أيضاً، كلما اعتقدتُ بأنّني تجاوزت ذكراها مكالمةٌ واحدة منها تعيد بقلبي كلُّ ما كان، حينما علمت بقرب زواجي لم تتحمل، طلبت الطلاق من زوجها وتركت كل شيء من أجلي، حدث هذا فقط قبل زواجنا بأيام، لم أستطع إلغاء زواجنا، حينها حتّى لا أعرضك لأي حديثٌ سيء قد يقال في حقك، ويمس بسمعتك ولم أستطع أيضاً رفضها فهي تمتلك مفتاح قلبي، تستطيع الخروج والدخول إليه وقتما تشاء، أعلمُ أنَّ حديثي يؤلمك، لكنّني وكما قلتُ لكِ لا أمتلك خيار، أنا رجل، والشرع حلل لي التعدد سأتزوجها وأجمع بينكم، وأعدك أنّني لن أقصر معك في أي شيء، وسأعدل بينكم لأبعد الحدود، عادت نبضاتي المتوقفة لكنّها عادت باردة، جامدة فاقدة لأي أثر للحياة..... فقدت أي شعور كانت تملكه، حتّى الشعوربالخوف قد زال، فعلى ماذا ستخاف لقد انتهى كلّ شيء، لقد جرح قلبي، كرامتي وكبريائي، كرهته في تلك اللحظة، أردتُ أنّ أؤلمه، أُوجعه، أنّ أُذيقه ولو شيءٌ طفيف مما أشعرُ به من عذاب، كان ينظر لي، ينتظرُني لأقول أي شيء، رفعتُ رأسي ونظرت لعينيه بثبات وتحركت شفتاي بكلمات لم تتوقع قولها في تلك الليلة.. قلتُ له : أنا أيضا لا أحبك

نظر لي بشك قائلاً : ماذا تعني.....؟ قلتُ له : أنا أيضاً أحبُ شخصاً آخر وأجبرتُ على الزواج منك، إنّ أردت أنّ تعود لحبيبتك فطلقني حتّى أعود لحبيبي.

تركته مذهولاً من كلماتي ودخلت غرفة النوم الأخرى التي كانت معدة للأطفال، ابتسمت بسخرية، عن أي أطفال أتحدث!!

دفنتُ نفسي بين الأغطية حتّى لا يسمع بكائي ولا يشعر بانهياري، أبكي بقهر على أحلامي الضائعة، وقلبي المحطم، وحبي الذي كُتب له أنّ يسجنَ بين قطبانُ ضلوعي، تباً للقلب الذي يجعل منا عبيداً للحب، نكبلُ أنفسنا بسلاسل وأصفاد العشق ولاءً لقلبٍ لم يشعر بنا يوماً، لم أستطع الاكتفاء من البكاء، فأجبرتُ نفسي على التوقف حتّى لا يظهر على ملامحي، انتظرت الصباح، ومرت تلك الساعات وكأنّها دهراً، وعندما أشرقت الشمس خرجت من غرفتي بفستان زفافي، وجدته مستلقي على الأريكة، انتبه لخروجي فاعتدل يرمقني بنظرات غاضبة حارقة، لم أهتمُ لنظراته تلك أشحت بوجهي عنه، ودخلت غرفة نومنا وأغلقتها خلفي بالمفتاح، تبدو لم تخطها قدميه، هو يكادُ يحترق غضباً لكنه لن يستطيع قول شيء فإنّ أراد أنّ يلومني سيجد أنّه لا يلوم سوى نفسه، فهو من اعترف لي بحبه لأخرى وبأنّها ظلت تحبه وهي متزوجة وتركت زوجها من أجله، فبماذا سيعاتبني أو بماذا سيتهمني وهو المتهم الأول.. أخذتُ حماماً أزيل به خيبة أملي وأسكن به حواسي المتألمة، ثمَّ ارتديت عباءتي العرائسية وأطلقتُ شعري الغجري، وزينتُ وجهي بشكل مبالغ فيه لأخفي علامات الإرهاق والبكاء.. خرجت من غرفتنا وقلتُ له دون أنّ أنظر إليه :يجب أنّ تحضر نفسك وتغير ملابسك فعائلاتنا سوف يأتوا بعد قليل، ثمَّ تركته دون أنّ أنتظر سماع شيئاً منه ودخلت المطبخ، حضرت العصائر والحلوى استعداداً لاستقبال المهنئين، وما هي إلا دقائق ورن الجرس، وحضرت العائلتين للتهنئة بمرافقة بعض الأصدقاء المقربين، استقبلتهم بابتسامة مشرقة ووزعت الضحكات هنا وهناك.. وكأنّني أحمل سعادة الكون بين راحتي، وتحدثت إليه أمامهم، وابتسامة حب تزين

ثغري، وعندما أخذتني أمي وخالتي للغرفة وسألتني عما حدث بيننا الليلة الماضية أخبرتهم بأنَّ علاقتنا قد تمت على خير ما يرام، زينت الفرحة وجوههم وأخذوا يهنئوني ويقبلوني بسعادة، ذهبت خالتي إليه قبلته وقالت له شيئاً ثمَّ جلسوا قليلا وأنا أتفنن في إضحاكهم ومزاحهم، حتّى رحلوا وهم يظنون أنَّي أسعد امرأة في الكون..

بعدما أغلقت الباب خلفهم تجمدت ابتسامتي، استدرت لأجده أمامي يقول لي :

لماذا توقفتِ عن التظاهر والابتسامة؟؟ لقد أعجبني تمثيلك كثيراً ..

قلت له : نعم كما قلت تمثيل فأنا مضطرة أن أصطنع السعادة أمامهم، لكن لماذا أزيف مشاعري أمامك وقد تعرت حقيقة كلٌّ منا أمام الآخر؟؟

قال : لماذا أخبرتيهم بأنَّ علاقةٌ حدثت بيننا!!

أجبت بضيق : وماذا تريدني أنّ أقول....؟ هل أقص عليهم ما حدث! ما ذنبهم هم بما يحدث بيننا؟؟ اتركهم يفرحوا بنا قليلاً حتّى وإنّ كانت فرحةٌ زائفة.

وما الحل الآن برأيك؟؟ الحل بين يديك أنتَ، إما أنّ تطلقني الآن وتنتهي القصة، أما إنّ كنت حقاً تخشى على سمعتي مثلما قلت، ننتظر فترة نتحمل فيها العيش معاً ثمَّ تطلقني بعد أنّ ندعي عدم التفاهم واستحالة استمرار العلاقة بيننا..

صمت قليلا يفكر، ثمَّ أجاب : موافق على اقتراحك، ننتظر فترة ثمَّ يذهب كلاً منا إلى حال سبيله، طالبته بشرط وحيد وهو أنّ يحترم زواجنا حتّى وإنّ كان صورياً وألّا يحادث تلك المرأة طوال فترة ارتباطنا مثلما سأحترمه أنا ولن أحادث غيره

رد ببرود : لكنّني رجل.. أجبته بدهشة : وهل الرجولة تعني أنّ تتحدث مع امرأة لا تحل لك ولا يربطك بها سوى كلماتٌ عشقية؟؟ هل الرجولة تعني أنّ تجمعك علاقة بامرأة مازالت تقضي شهور العدة لرجل آخر!!؟؟ تعني أنّ تشوه رباط الزواج المقدس بالخيانة حتّى إنّ كانت حسية فقط

وليست جسدية، إنّ كانت تلك الرجولة التي تتدعي فأنا إذا أفتخر كوني امرأة تخاف ربها، تحترم زواجها وتقدر زوجها، بما أننا اتفقنا على استمرار الزواج، فكان يجب أنّ نسير حياتنا بشكل طبيعي، لذا ذهبنا لقضاء شهر العسل حتّى لا نثير الشبهات إنّ ألغيناه، في الواقع هو ليس شهراً هو أسبوع فقط، ذهبنا لإحدى المناطق الساحلية رائعة الجمال، واتفقنا أنّ نتعامل كالأصدقاء طوال فترة وجودنا معاً، نقلت له عدوى جنوني، زرنا جميع الأماكن الرائعة، سهرنا ورقصنا، تشاجرنا على طعامنا المفضل، تسابقنا بالدراجات وركضنا حفاه على الشاطئ، نمنا على الرمال حتّى الصباح، استأجرنا مركباً، سقطت منه وأنا أحاول الوقوف على المقدمة بغباء، وأسقطه معي وهو يحاول انتشالي، قد لا يكون هذا شهر العسل الذي خططت له وتمنيته لكنّني ورغم الغصة بقلبي لم أرغب في أنّ أضيع لحظة أقضيها معه دون الاستمتاع بها، والسعادة بوجوده معي، وبقربه لهذا الحد.

عدت محملة بذكريات جميلة ولحظات سعيدة لا تنسى، وإن كانت تحت مسمى الصداقة، أما الآن فقد آن الأوان لتتخذ الأمور بعداً آخر، يجب أنّ يعلم من أنا، وما هو بالنسبة لي، آن له أنّ يعلم بأنّني أعرف عنه أكثر مما يعرفه هو عن حاله، كل تفصيل من تفاصيله يختزنه عقلي، وكلُّ كلمة سمعتها يوماً عنه حُفرت في ذاكرتي، أفعاله وردود أفعاله، تعبيرات وجهه التي كنتُ أراها وأنا أختطف النظرات إليه، نقشت على جدار قلبي، كنتُ أتصنع تجاهله، وفي ذات الوقت أهتمُ به كثيراً بكلّ تفاصيل حياته وبكلّ عاداته اليومية، أتفنن بصنع أكلاته المفضلة وأحضر له قهوته السادة المعتاد على تناولها قبل نومه، أوقظه بلطف بالعبث في خصلات شعره، وأستقبله بموسيقى هادئة عند قدومه من عمله مرهقاً ومتوتراً، وبابتسامتي الحنونة أزيلُ عن عاتقه

أي ضغط عصبي عايشه طوال اليوم، أوقظه فجراً لنصلي سوياً، حتّى صارت تلك الصلاة أهم طقوسنا اليومية، كنتُ أجلس بجواره يومياً أشاهد برنامجه السياسي باهتمام مبالغ فيه، وأتناقش معه في حلقاتٌ سابقة، كان يثني على متابعتي الجيدة للبرنامج، لا يعلم أنّني لم أفوت حلقة من سنوات،

منذُ علمت باهتمامه الشديد به، وكنتُ أرى مدى سعادته حين أتابع معه مباريات فريقه المفضل وأشجع معه بحماس وصراخ، وأحتضنه عندما يسجلون هدفاً، ونعد كعكة سوياً للاحتفال بالفوز، لم يكن يفضل الخروج، كان يعشق الجلوس بالمنزل، كنا نجلس في الشرفة نحتسي القهوة ونتناقش بالساعات في الأمور السياسية وفي كرة القدم، وأحياناً عن جميع أمور الدولة، كان يستمتع كثيرا بالحديث معي ويتعجب من كم المعلومات التي أملكها، كان يظن أنّ الفتيات لا يفقهنَّ شيئاً سوى الشراء والأزياء والطبخ فقط، لكنّني أريته نوعاً جديداً من الفتيات لم يكن يعلم عنه من قبل، تلك الفتاة المثقفة التي تمتلك عقلاً من ذهب وتستطيع أنّ تنازله في العقل والتفكير..

كانت الغيرة تحرق جدران قلبي كلما علمتُ إنَّه يحادثها وبخرقه للاتفاق بيننا، لكنّه كان يعود ليرضي غروري كلما رأيته يفتش هاتفي ويرفض خروجي من المنزل وحدي مرافقاً لي في كلّ مكان خوفاً من أنّ أقابل المدعو حبيبي..

وفي بعض الأحيان يسألني عن مظهره صفاته، الشيء المميز الذي جعلني أغرم به .

أردت أنّ اخبره أنَّ المميز فيه أنَّه هو نفسه من اختاره قلبي من بين كلُّ رجال العالم ليسلم صك ملكيته له وحده دون غيره..

مع مرور الوقت ومن خلال متابعتي لهاتفه أكتشف أنَّه بدأ في تجاهل اتصالاتها ويرسل إليها رسائل تحوي أعذاراً واهية، فرحت كثيراً أنَّ قربه مني، بدأ يخرجها من قلبه، فبدأت خطوتي التالية..

كنتُ أتعمد ارتداء الملابس المثيرة أمامه طوال الوقت، وفي الليل حين أشعرُ به يتحرك في الشقة أخرج مدعية العطش بقميص نوم يظهر أكثر مما يخفي، أتهادى أمامه بتجاهل ثمَّ أدخل لغرفتي وأغلقها خلفي وأتركه يحترق شوقاً لزوجته التي حرمَ نفسه منها بإرادته..

وفي إحدى الليالي كنت أحضر العشاء بالمطبخ، شعرتُ به خلفي يقترب، تشنجت أطرافي حين احتضنني من الخلف والتفت يده حول خصري، أبعد خصلاتي الغجرية وبدأت أنفاسه الساخنة

تلفح بشرتي الناعمة، وبدأ ينثر قبلاته على رقبتي ونحري، حاولت الابتعاد لكنّه أدارني بقوة واحتضنت شفتاه شفتاي في قبلةحلمتُ بها لسنوات، مما جعل النشوة تملأني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، لكنّني لم أستسلم لمشاعر الرغبة والاشتياق التي كاد أَنْ يغرقني داخلها، فانتزعت نفسي من براثن رغبته الجامحة، وركضت نحو غرفتي، أغلقتها خلفي وهو يتبعني مسرعاً، غضب عندما وجد الباب مغلقاً كاد أن يكسره صارخاً أنتِ زوجتي وهذا حقي، ترقرقت من عيني الدموع، جلستُ أرضاً، أسندت رأسي على الباب وأغمضت عيني بقوة وتركت لها العنان لتسكب دموعها كيفما تشاء، أشعرُ بتعب شديد، أشعرُ بالضعف، لقد أنهكني كثيرا هذا الحب، أنهك مشاعري وأنهك قلبي، لم يعد يحتمل أكثر، حان الوقت للخطوة الأخيرة، إما أن أربح قلبه أو أخسر أنا قلبي..

لم أستطع النوم طوال الليل، لم أرتاح، قلبي يشعر بالاشتياق منذُ الآن، يرتجف خوفاً من أن تكون تلك هي الليلة الأخيرة للسكن بجوار قلبه، حتّى وإنّ كان جداراً يفصل بينهم إلّا أنَّه كان يستشعر نبضاته من خلفه، يراسلها عبرذرات الهواء ..

في الصباح وضعتُ بعضاً من أغراضي في حقيبة، ارتديتُ ملابسي، خرجتُ من غرفتي، وجدته جالساً على الأريكة، يبدو لم ينم هو الآخر قال لي : أين تخالين نفسك ذاهبة؟؟ قلتُ له بكبرياء : إلى منزل أهلي، أعتقد يكفينا تمثيلاً حتّى الآن، صاح بانفعال هل اشتقتِ له، تريدين التخلص مني لتركضي إليه أجبته بغضب : لا، أنا فقط أريد أنّ أخلي شقتك واخلي ذمتك أيضاً، وأساعدك للتخلص مني حتّى تعود سريعاً لحبيبتك..قال بخفوت : لكنّني لا أريد التخلص منكِ ولم أعد أريد العودة إليها، دق قلبي بعنف أغشى أذناي، حاولتُ تهدئته لتستمع روحي لكلمات تتوق لسماعها منذُ دهر.. قال وهو ينظر في عمق عيناي بحب :أفنيت نصف عمري أُرثي وهماً..... وهماً صنعه عقلي وصدقه قلبي، أوهمت نفسي بأنَّ حياتي تتمثل في وجودها، لذا توقفت حياتي عندما خرجت منها، صدقت كذبتي وتعايشتُ معها لسنوات حتّى دخلتِ أنتِ حياتي، وملأتِ هذا الفراغ الذي

يسكنني، تسللتِ لقلبي بدهاء، جعلتني أدمن تفاصيلك، وتتشرب عيناي ملامحك لتستدعيها حين لا تكونين معي، انبهرتُ بعقليتك وأفكارك، وكم أصبح قلبي يسعد حين تبتسمين، ويرقص حين تضحكين، وكم رغبت أصابعي في احتضان أصابعك، وراودني قلبي للنوم بين أحضانك وتوق صدري لإحتضانك حين تيقنت أنَّك استوطنتِ خلايا قلبي بجدارة، أدركت حينها بأنَّ ما كان لم يكن حباً، فما عاهدته معك من مشاعر لم أعهده من قبل، ولن أعهده بعدك، اعترفتُ لها بأنَّني صرتُ مغرماً بكِ ولم أعد أحملُ لها داخلي أي شيء، ونصحتها بالعودة لزوجها وابنتها فهم أَولىَ بها، لن أحاول إثنائك عن أي قرار اتخذتيه، لكنّني مديناً لكِ بالاعتراف بأنَّني أصبحتُ أحبك حد العشق، وأعشقك حد الجنون... دموع السعادة تنهمر كالشلالات، تتدفق من عيناي وتسقط على موضع قلبي لتروي ظمأ السنين، ما أسعدني وأنا ألمس حُلم حياتي يتحقق بعد أن هجرني الأمل ورحل بعيداً لسنوات، وحين قال : إن أردتِ الذهاب فأنا لن أقف في طريق سعادتك.. ركضت حينها ارتميتُ بين أحضانه، تعلقت برقبته ووضعت رأسي فوق قلبه مباشرة وتحدثت حينها وكأنما تعانق كلماتي نبضاته ؛ أنتَ سعادتي، أنتَ هو حبيبي الذي طُبع حبه بقلبي منذُ الطفولة، كبرَ معي وتخطى عمري بمئات السنين، أنتَ حُلمي المستحيل الذي أصبح واقع جميل، احتضنني بقوة كأنَّه يريد سَجني بين ضلوعه، للمرة الأولى بحياتي أشعرُ حقاً بأنَّني وردة وقد آن أوان الورد لينثر عبير سعادته.

*****

عشق من طرف واحد

لم أنهي دراستي بعدما حاربتُ كلَّ شيء من أجلها، فبالرغم من فقرنا وقلةُ حيلتنا لم أستسلم، درستُ نفسي بنفسي، لم أحاتج يوماً لأحد، حتّى وصلت المرحلة الثانوية، ترافقني آمالاً عريضة، وطموحات كبيرة، كنتُ أحلم بدراسة الهندسة بأنّ أصبح مهندسة مرموقة، وأخرج عائلتي من بؤرة الفقر والعوذة، لكنّ بين ليلة وضحاها تجمدت كل أحلامي، وظل طموحي جنيناً في رحم المعاناة، لن يكتب له القدر أنّ يولد يوماً، فقد أنهك العمل الشاق والدي، وهاجمه المرض بضراوة، رقد في المنزل ولم يعد لدينا عائلاً، وأمي امرأة بسيطة، منهكة القوى، رغم أنها لم تتعدى الأربعين ربيعاً بعد، إلَّا أن ضيق الحال والشقاء وتربية سبعة أبناء أنهكها تماماً ولن تستطيع تحمل مشقة العمل، لذا بما أنَّني أكبر إخوتي فقد وضعَ على كتفي زمام المسؤولية كاملة، إعالة تلك الأسرة الكبيرة، وتوفير العلاج لوالدي، وتعليم إخوتي الصغار، ليصلوا لما لم أستطع أنا الوصول له.. بحثت عن عمل حتّى ذابت قدماي، لا يريد أحد أن يوظفني، ينظرون لي باستخفاف ويغلقون الأبواب في وجهي، فأنا لا أحمل أي مؤهل غير حجمي الصغير وملامحي الطفولية/ وملابسي البالية المبعثرة، ما جعلني أبدو كطفلة تائهة تبحث عن والديها لأيام وأيام تمشط قدمي أرصفة الطرقات بحثاً عن عمل حتّى أعود منهكة ليلاً، أرتمي فوق فراشي الذي يحتضنني حتّى الصباح التالي لأعود مجدداً منطلقة في رحلة البحث دون كلل ولا ملل.

ذات صباح أشرقت شمس أحلامي حينما أهداني القدر عبر رياحه ورقة تحتضن وجهي كأنما تخبرني عن اختيارها لي، أمسكتُ بها بأطراف أصابعي، أقرأ ما تحويه بين سطورها لتتسع حينها ابتسامتي التي لم تعد تزورني إلَّا قليلا، إنّها ورقة إعلان لطلب سكرتيرة للعمل بمكتب هندسي تهللت أساريري، واجتاحني التفاؤل، وحلمي الذي طويته بداخلي يراودني وفكرت إنّ لم يُكتب لي أنّ أصبح مهندسة فعلى الأقل أعمل معهم، دعوت الله وترجيته أنّ يجعل تلك الوظيفة من نصيبي..

اتجهت سريعاً نحو العنوان المدون بالورقة، ودخلت المكتب ليصدمني عدد المتقدمات إلى الوظيفة، كمٌ كبير من الفتيات الأنيقات الجميلات، كأنّني وسط عرضٌ من عروض الأزياء.. نظروا نحوي بسخرية ودونية حينما وجدوني أملأ استمارة التقدم، ولا ألومهم حقاً، فأنا نفسي كنتُ خجلة من حالي ومن مظهري، كنتُ أتمنى أنّ تنشق الأرض وتبتلعني، فأنا بجانبهم لا شيء، فكرت في الرحيل وعدم إجراء المقابلة، فمؤكد سيطردني المدير بمجرد رؤيتي، فهل سيترك هؤلاء ويوظفني أنا، لكنّ لا أعلمُ من أين أتاني الإصرار وقررت الاستمرار وإجراء المقابلة، ففي النهاية أنا لن أخسر شيء، كانت الفتيات يخرجون من المقابلة مبتسمين ويتهامسون طويلاً، لم ينتابني الفضول لأعرف عما يتحدثون، دخلت حين أتى دوري بثقة، لا أعلمُ من أين أتتني! ولا مبالاة لم تدم طويلاً، فقد توقفت أنفاسي وتجمدت مقلتاي فور دخولي المكتب، يا إلهي من أين أتى هذا المخلوق، كم يبدو وسيماً جداً، وآه من عيناه الزرقاوين، وطوله الفارع، وعضلاته البارزة من القميص الضيق الذي يرتديه، وأناقته المبهرة، وعطره الذي اخترق أنفاسي، ما إن اقترب منيّ، طلب منيّ الجلوس وجلس في الكرسي المقابل لي تماماً، عاملني باحترام واهتمام كبير، وأخذ يطرح عليّ بضعة أسئلة، كنتُ أجيبه بربع عقلي فقط فالباقي كان ضائعاً في تلك الغمازتين العميقتين التي تحاوط فمه عندما يبتسم وتلك الشعرات البنية المتناثرة في ذقنه والتي تزيده وسامة، حينما أنهى أسئلته استقام وشكرني، وابتسم لي لأضيع مجدداً في غمازتيه، ثمَّ مدّ يده وصافحني لتسري لمسته كالكهرباء في ذراعي..

خرجت مصطحبة نظراتي الحالمة وابتسامةٌ بلهاء مرتسمة على محياي، علمت الآن لما تخرج الفتيات من عنده مبتسمات، وفيما كانوا يتهامسون، اكتفيت بتلك المقابلة اليوم، لم أبحث عن أي عمل، رغبت أنّ ترافقني ملامحه لباقي اليوم وليتأجل البحث عن عمل للغد الجديد..

مرت أيامٌ أخريات على هذا المنوال، ولم أجد عملاً بعد، ولا يبدو سأعثر عليه قريباً، لذا فقد قررت أنّ أقبل بأي عمل بسيط، حتى وإنّ كان تنظيف المنازل، فأحوالنا المادية لا يعلمها إلا الله، نكاد لا

نجد الطعام لولا بعض المساعدات البسيطة من بعض الأقرباء هي ما تعيننا على الحياة، لأستيقظ اليوم التالي على صوتاً صارخاً يكاد يهدم جدران منزلنا القديم المتشققة من كل زاوية، إنه صوت جارتنا السمينة، الفضولية جميلة، ولا أدري من أين لها بهذا الاسم!! وهي لا تمت إلى للجمال بأي صلة، خرجت مسرعة لأرى ما تريد في هذا الوقت المبكر قالت بأنّ هناك أحداً يريد التحدث إلى عبر الهاتف، ركضت أهرول على السلم صاعدة فأنا كنتُ أترك رقمها في أي عمل أتقدم إليه عسى أن يقبلوا بي ويحادثوني، وصلت لسماعة الهاتف بأنفاسٍ لاهثة، وجميلة لحقت بي وهجمت عليّ واضعة أذنها فوق السماعة لتستمع لما يقال، أجبت بنعم ليأتيني صوتاً كمقطوعة موسيقية يخترق أذني التي ميزته منذُ الوهلة الأولى، فذبذباته مسجلة داخلها لم أستطيع نسيانها بعد مرور كل تلك الأيام. قائلاً بلطف وكأنني أرى ابتسامته وهو يخبرني: لقد حصلتي على الوظيفة وستستلمين عملك من صباح الغد... تركت السماعة من يدي وأبعدتُ جميلة وشحومها من فوقي ولم أرد على أسئلتها، تركتها ليقتلها فضولها، قضيت يومي كالمغيبة المصدومة وكأن الكون توقف من حولي وأضحى خالياً إلّا من صورته أمامي ، أحدث نفسي بذهول : هل حقاً سأعمل معه...؟ هل سأراه كلَّ يوم....؟

ارتديتُ أجملَ ما لدي وذهبت العمل أطير طيراً وكأنه نمى لي جناحان يحملوني حتّى هناك ..

دخلت المكتب الذي لم تتخيل قدمي أنّها ستطأ أرضه مرة أخرى، وجدته ينتظرني، رفرف قلبي حين وقعت عيني عليه وهو منحني مشغول بالنظر إلى بعض الأوراق، ثمَّ سقط أرضاً حين رفع عينيه الزرقاوين ناظرا نحوي، كنت أريد التحدث لكن نظرته ألجمت لساني، وتوقفت الكلمات في حلقي، فسبقني هو وأجاب عن كلّ الأسئلة الحائرة التي كنتُ أبحثُ لها عن إجابة، قال لي : لقد اخترتك لأنّني شعرتُ باحتياجك للعمل، ولمحتُ الإصرار والعزيمة في عينيكِ، أما الآخريات فكأنّهم ينتظرون دورهم في صالون تجميل وليس مقابلة عمل، أنا أبحثُ عن شخصٌ جدي أستطيع الاعتماد

عليه والثقة فيه في ذات الوقت، وهذا ما رأيته فيكِ وأتمنى أنّ تكون نظرتي في محلها، أكدتُ له أنّني سوف أفعل كل شيء لأكون عند حسن ظنه بي، بدأت العمل وبذلت كل طاقتي لأتعلم كافة أمور العمل في وقتٍ قياسي، كان يجلس معي أحياناً ليشرح لي بعض الأشياء، وكم كنتُ سعيدة حينها وكم تمنيت أنّ تطول تلك اللحظات، أظهرت ذكاءً وسرعة بديهة، تعلمت كل شيء في أيامٍ معدودة، كان سعيداً بذكائي ونشاطي ويدعمني ويشجعني دائما بكلماته، كان خلوقاً، مهذب، وطيب القلب، حينما علم بظروف والدي بعثني لطبيب معروف يملك مشفي خاص تكفل بعلاج والدي كاملاً علمتُ بعدها أنَّ هذا الطبيب والده، ضاعف لي راتبي لأستطيع الإنفاق على دراسة إخوتي، غمرني بعطفه وحنانه، لذا اعتقدت أنَّ كلَّ ما أشعرُ به تجاهه هو نتيجة لما يفعله معي ومساعداته التي لا تنتهي لي ولأسرتي، لكنّ الأيام أثبتت عكس ادعائي، فلم يكن أبداً إعجاباً أو امتناناً لمعروف قدمه لي، بل كان عشقاً تسلل داخلي تدريجياً حتّى سكن كلَّ خلجاتي، ثمَّ استقر متربعاً في جوف قلبي، وكنتُ موقنة تماماً من أنه عشقٌ من طرف واحد ...

مرت خمس سنوات كاملة..... تغير كل شيء ، العمل تغير كثيرا، اشتهر المكتب وذاع صيته وانتقلنا لمكتب أكبر وموظفين أكثر ..

أنا كبرت، نضجت، تغيرت هيئتي، أضحت كلاسيكية أنيقة تليق بمنصبي كمديرة المكتب، وبمكانتي الكبيرة في المكان، حبي له تغير أيضاً أصبح أكبر وأعمق، كان ينمو بداخلي كل يوم أكثر من اليوم الذي يسبقه، ومازلت على دراية ووعيٌ كامل أن شعوري يخصني وحدي.... وحدي فقط وبأنَّه لن يشعر بي يوماً أبدا، ولم أحاول مطلقا إظهار مشاعري نحوه بأي شكل، فيكفيني أن أبقى بجواره ولا أريد أكثر من ذلك.... أو هكذا ظننت.. فذات يوم غربت فيه شمس قلبي ولم تشرق من حينها....رأيته يدخل مكتبي مبتسما بسعادة، يخبرني بأنه يحضر لي مفاجأة، وأعطاني ظرف دعوة، لا أعلمُ لمَ انقبض قلبي حين رأيتها، أخذتها منه بأصابع مرتجفة، فتحتها ببطء لتتلون كل أحلامي

الوردية بالسواد، حين رأيت اسمه يجاور اسم أخرى في دعوة زفافهم تشوشت رؤيتي إلا من وجهه وابتسامته لا أعلم كيف خرجت الكلمات حينها من بين شفتي وقلت له مبارك لك ، وكم جاهدت نفسي لأرسم ابتسامة زائفة على محياي، اذكر يومها مشيت بالطرقات أبكي بصوت عالٍ غير مكترثة بالناس وبالعيون التي تتجه صوبي من كل مكان..

ذهبت لمكاني المفضل، مقعدي أمام البحر الذي كنت أتوجه إليه دوما لأخبره عن مدى عشقي له وأسرد له كل كلمة يقولها لي، وكل موقف يجمعني به..

اليوم أتيت له لأنهي جميع أحاديثنا للأبد، لأنتزع قلبي من بين ضلوعي وألقي به، لتبتلعه أمواجه الهائجة ويُدفن في أعماقه، علّي التخلص من تلك النار المشتعلة في جنباته وسأعيش من دونه، فلم أعد بحاجته.

كان كل يوم يستغل أي وقت مستقطع من العمل ليحكي لي عنها، كيف كان عاشقاً لها منذ سنوات، وكيف فرقت الظروف بينهم، وسافرت طويلاً، وأعتقد أن مشاعره انطفأت بداخله لتعود وتشتعل من جديد منذ أول مقابلة بينهم، وكأن الايام لم تفرقهم يوماً... كانت كلماته طعنات موجهة في صميم قلبي ولكن تلك السعادة التي تغلف ضحكاته وتلك الفرحة التي تتراقص في عمق عينيه كانت تهدئ من روع أوجاعي وتسكن من حدة آلامي... كنت دوماً ما أعتقد أن الحب أنانية، وبأن السعادة لن تتحقق داخلي إلا بوجودي مع من أحب وجوده معي دون خيارٌ آخر، لكنني الآن أنظر للأمر من منطلق آخر، من منظور مختلف تماماً، فبرغم ألمي إلا أنني سعيدة من أجله، لأنه عثر على نصفه الآخر و حب عمره، وسيكمل حياته سعيدا معها، كنت أنوي حضور العرس .....لكنني لم أستطع ...حقا لم أقدر على فعلها، حاولت ترويض نفسي وتقييد روحي، وتغليف قلبي بجدار زجاجي والذهاب مبتسمة مباركة سعيدة كالجميع، لكن بمجرد رؤيتي لنفسي في المرآة أتزين لحضور عرسه، حينها فقدت السيطرة على روحي الجريحة، انهرت أرضاً أبكي وأبكي، وأبتلع شهقاتي...ولم

أذهب، في اليوم التالي مرض والدي كثيرا، وكأنه كان يشعر بوجعي ويشاركني إياه ويخلق لي الحجة المناسبة لعدم ذهابي للعرس، وما هي إلا أيام ورحل والدي، ذهب لخالقه عله يجد لديه الراحة والسكينة الذين تخلوا عنه منذ زمن، رغم حزني ووجع الفراق إلا أنني آمنت أن الله أراد له الأفضل، والغريب في الأمر أنه ترك عروسه وأتى ليقف بجواري في أزمتي ويأخذ عزاء والدي بنفسه لثلاثة أيام متواصلة..

أخذت إجازة طويلة محاولة لترميم روحي ومداواة أوجاعي، فما تعرضت له من ضربات متتالية أنهك قواي، ودمر نفسيتي تماما، عدت للعمل من جديد، لكنني عدت مختلفة، انطفأت روحي وخفت حماسي، أصبحت باردة، جامدة لا أكترث لشيء ولا أهتم بأحد، حياتي تتلخص في مسؤوليتي تجاه أسرتي وتجاه عملي فقط..

مرت الأيام وعروض الزواج تلوح في الأفق من حينٌ لآخر، لكنني دوماً ما كنت أرفض دون أدنى تفكير..فكيف أتزوج بشخص وقلبي يملكه آخر، أعتقد أن هذا أكبر ظلم قد يتعرض له الرجل حين يتزوج من امرأة ناقصة لا تمتلك قلباً تبادله به الحب فتسعد معه وتسقيه من سعادتها، ومن ناحية أخرى فقد زهدت نفسي كل شيء أو كما قالت ماجدة الرومي.. اعتزلت الغرام..

أربع سنوات أخرى مرت مكتفية بوجودي بجواره، متشبع قلبي به حد الامتلاء، أستمد سعادتي من سعادته،أما في الآونة الأخيرة خفتت تلك السعادة وذبلت ابتسامته، لمحت طيف حزن يعتري ملامحه كأنه يحمل من الهموم ما يثقل كاحله، أصبح ينهك نفسه كثيرا بالعمل يقضي

به معظم وقته، لم يعد يشعر بالحماس للعودة لمنزله، أو لم يعد يريد العودة له من الأساس، هكذا شعرت ..حاولت التحدث إليه علّي أعرف شيء، أكتشف دواخله لأعرف ما أصابه، لكنه كان يغلق الباب في وجه أي حديثٍ شخصي، حتى أتى هذا اليوم الذي تغير فيه كل شيء.....

حين طلب مني عدم المغادرة بعد انتهاء ساعات العمل والدخول إليه حين يخلو المكتب من كل العاملين..استغربت كثيرا!! فتلك المرة الأولى التي يطلب شيئاً كهذا!! مؤكد هناك شيء عظيم يريد أن يخبرني به...

قضيت النهار أللم شتات أعصابي والأفكار تصول وتجول داخل عقلي، تكاد تفتك به، حتى انتهى يوم العمل الذي شعرت أنه الأطول في حياتي، وذهب الجميع وركضت إليه لأريح عقلي وقلبي من التفكير، وأعرف ماهية الشيء الذي يريدني به..

كان ينظر لي بغرابة، ركز عيناه الساحرتين المنهكتين في عيني طويلاً ليحلق قلبي في سماء الغرفة ويتركني...طلب مني الجلوس وجلس أمامي كالمرة الأولى تماما ، أراح رأسه على ظهر الكرسي وأغمض عيناه ..أمسك أعلى أنفه بأطراف أصابعه، يتنهد تارة ويزفر تارة أخرى وأنا يقتلني الفضول ويرثي قلبي حاله دون حتى أن يعلم ما به، اعتدل فجأة ينظر لي بثبات لتتشنج كل حواسي دفعة واحدة...

ثم قال بهدوء : زوجتي لا تنجب .....

أجمع كل الأطباء داخل البلاد وخارجها أنها لن تنجب، أنا لا اكترث بذلك، لا يهمني البتة فأنا أكتفي بها من تلك الحياة، لا أريد أطفال، تكفيني هي فقط، لكنها لا تتفهم ذلك، تطالبني منذ شهور بالزواج حتى أرزق بطفل يحمل اسمي، وكلما أرفض زاد إصرارها، والآن تهددني إن لم أتزوج ستتركني وترحل، وأنا والله لا أستطيع العيش دونها.. كانت دموعي الحارة تلاحق كلماته حتى تجمدت في مقلتاي حين قال : قررت أن ألبي رغبتها وأفعل لها ما تريد، قررت الزواج، ولم أفكر إلا بكِ .....

أعلم بمشاعرك نحوي، وأعلم أنكِ تعزفين عن الزواج بسبب ما يحمله قلبك لي، وأعلم جيداً أنني لن يفهمني غيرك، لذا لم أفكر إلا بكِ، ولأكون واضحاً منذ البداية فإن وافقتي على الزواج مني

لتعلمي جيداً أنني لن أكف يوماً عن حبها، فعشقها يملأ قلبي و يغزو جوارحي، أعدك بالاحترام، بالتفاهم، بالاحتواء، لكنني لن أعدك بالحب .....لم أعد أحتمل، وقفت أنظر له لثواني غير مصدقة ما سمعته أذناي، لأول مرة بحياتي أشعر أنني أريد الهرب بعيداً عنه، لا أريد سماع صوته، فكلماته تؤلمني، توجعني، تصيبني في مقتل، هربت عدت لمنزلي، أغلقت غرفتي، أسندت رأسي على بابها، أغمضت عيني، تراودني الذكريات منذ اليوم الأول، تسعة سنوات كاملة مرت أمامي أحداثها كشريط يركض حاملاً عمري الضائع في صورا متلاحقة، مؤلمة، قاتلة، واجمةٌ، لا أبكي، ما أشعر به داخلي من غضب وثورة أكبر من أن يسمح لدموعي بالانهمار، أشعر بالإهانة، بالخيانة..

كان يعلم من البداية بمشاعري نحوه، وأنا من اعتقدت أنني أحتفظ بها داخل قلبي تسكن فيه آمنة لا يشاركني بها أحد، كيف كان يحكي لي عن عشقه وعن حكاياته معها وهو يعلم بحبي له؟ ماذا كان يقصد ؟ هل كان يتعمد إيذائي؟ يتعمد إيلامي وذبح قلبي؟؟ احتضن جسدي النحيل الأرض انكمشت ركبتاي لتلامس صدري وغلفتهما ذراعاي، كم أريد العودة للطفولة مجددا، لقد تعبت حقا، لقد أنهكتني الحياة، ثلاثة أيام لا أفارق غرفتي، غارقة في ظلامها الدامس، أجمع شتات مشاعري المبعثرة وأرثي خصوصية قلبي المنتهكة....

في اليوم الأول لم أستطع إغماض عيني لثانية، أما اليوم الثاني فرأيته في حلمي قادما نحوي يغلفه الظلام من كل مكان، لا أرى سوى لمعة عينيه، وفجأة سقط في فجوةٌ بالأرض كأنها بئراً عميقاً ابتلعه، أسمع صوته من البعيد يستنجد بي، يطلب مساعدتي، حاولت الذهاب إليه لكنني لم أستطع الحراك، كأنني مكبلة، حاولت مرارا دون جدوى، حتى خفت صوته ثم اختفى تماما، استيقظت من نومي صارخة بأنفاس لاهثة وحبات العرق تغرق جبيني، وفي لحظة واحدة كل ما كنت أحمله نحوه من غضب وحقد اختفى، وحل محله خوفٌ ولهفة واشتياق..

في اليوم الثالث زارني أبي في الحلم، وكأنه عاد شاباً من جديد اختفت علامات المرض وآثار الشيب، يرتدي عباءة بيضاء ناصعة، ووجهه يشع نورا، اقترب مني ومد يده لي بهدية قائلاً بابتسامة رائعة تزين وجهه:

لا تردي هديتي مددت يدي وأخذتها، ابتسم لي مرة أخرى واختفى، نظرت حولي في كل مكان ولم أجده، ثم نظرت للهدية التي أعطاني إياها، وقبل أن أفتحها شعرت بيد تمسد على ذراعي، فاستفقت على صوت أمي تقول لي بخفوت استيقظي مديرك ينتظرك في الخارج، جلست مسرعة أحاول فتح عيني بصعوبة، أنظر لها باستغراب كأني لا أفقه ما تقول، حتى لمحت قدمه من فتحة الباب، فشقتنا صغيرة جداً لا يفصل بين غرفتي والصالة سوى هذا الباب..

خرجت أمي وأغلقت الباب خلفها.. وقفت أتنفس بصعوبة، قلبي يهدر داخلي بعنف، تذكرت حلم والدي والهدية، ارتديت إسدال الصلاة وخرجت له، أشعر في كل خطوة بأن قلبي يكاد يتوقف من شدة دقاته، لم أستطع النظر إليه، جلست مقابلة له أنظر للفراغ، لم يتحدث سريعاً، كنت أستمع لأنفاسه وهو يتنهد بقوة منتظرة أن يقول أي شيء، فكم اشتاقت أذناي لسماع صوته وكأنه شعر برجائي فقال : تركتك الأيام الماضية لكي تفكري جيداً وتتخذي القرار الصائب، ولكن قبل أن أسمع قرارك أريد أن أُعلمك بأنكِ لو رفضتي الزواج مني فأنا لن أتزوج من أخرى وحينها ستتركني زوجتي وتنتهي حياتي ، أنا أحتاج إليكِ كثيرا كنتِ دائماً ملجئي، ودوماً ما كنتُ أُلقي بمشاكلي وهمومي بين يديكِ ، لم تتواني عن مساعدتي يوماً، ولم توصدي قلبك الكبير في وجهي أبداً، أنا الآن في أمس الحاجة إليكِ فلا تقذفي بي خارج قلبك، فلن أجد من يفهمني ويحتويني مثلك..

دمعةٌ هاربة سقطت من عيني تلتها أخريات، انتظر كثيرا وحين يأس من سماع أي جواب، استقام راحلاً، يتحرك ببطء كأنه يجر قدميه وحين سمعته يفتح باب الشقة رفعت رأسي إليه وتحدث قلبي عبر شفتاي بكلمة ..... موافقة

التفت بصدمة واقترب مني سريعاً جلس بجواري، لامست أصابعه وجنتاي تزيل دموعي المنهمرة.. ونظر في عمق عيني قائلاً : سنتزوج الليلة.. لا أعلم لما صرخ قلبي بالموافقة ربما لأنه أجبرني أن أحجم عن الزواج وأن أختار البقاء بجانبه، صديقة ورفيقة عمل فقط، وحينما أتته الفرصة بأن أصبح جزءا من حياته، بأن أنجب قطعة منه، نسخة مصغرة عنه تصبح ملكٌ لي وحدي، حينها لم يستسيغ الرفض، لم يقبل به جواباً..تزوجنا ....

في البداية لم يعطيني الكثير من وقته لكن فكرة وجوده بحياتي تكفيني وتمحو عني أي شعورٍ سلبي، وعندما حملت زاد اهتمامه بي كثيرا، وحين وضعت طفلنا الأول محمد تغيرت حياتي تماماً، عندما رأيته ينظر له للمرة الأولى، تلتهمه عيناه بسعادة وفرحة غامرة ليس لها حدود وكأنه يريد أن يدخله بين ضلوعه ويغلق عليه، شعرت حينها أنني أسعد امرأة في الكون، صدقت أمي حين قالت لا تصدقي رجلاً يقول أن الأطفال لا تعنيني، فعندما يحمل ابنه بين يديه فهو حينها يملك الدنيا وما فيها ولا يعد يريد شيئا من الحياة بعد.. أصبح يقضي معظم وقته معنا، أصبحت نظراته لي مختلفة عندما تتلاقى أعيننا أشعر بالحب، بالامتنان يزينان نظراته.. طلب مني العودة للدراسة مجددا لتحقيق حلمي،عدت لإكمال دراستي،التحقت بالجامعة..ودرست الهندسة وحصلت على أعلى التقديرات رغم حملي المتكرر أثناء الدراسة، لم أستسلم، أصررت على النجاح، وحصلت على شهادتي بتفوق، رزقني الله منه بثلاثة أبناء، أغلى شيء في حياتي، ولا أستطيع وصف عشقه لهم، خاصةً تلك الجنية الصغيرة ليلى التي تشبهه كثيرا وتحمل نفس لون عينيه وغمازتيه التي لطالما عشقتهم ، أسماها على اسم زوجته، ولم يجد مني أي اعتراض، فأنا لا أملك ذرة حقد ناحيتها، على العكس فما أشعر به من حب يكفي أن أوزعه على العالم أجمع ويفيض، وكل يوم أشكر الله على نعمه وعطاياه التي غمرني بها، وأشكر أبي لأنه من طلب مني ألا أرد هديته التي بفضلها الآن أجمع كل سعادة الكون بين يداي

*****.

بعد النهاية هناك حياة

دوماً ما كنت أكره تلك العادات والتقاليد البالية التي ما زالت تتحكم في العقول اليابسة لبعض العائلات في مجتمعنا، مازالت جذور التخلف والرجعية ممتدة من مئات السنين، حتى يومنا هذا، وكم ازداد كرهي وحقدي حين منعوني من إكمال دراستي رغم تفوقي، مبررين أنني فتاة، ويكفيني هذا القدر الذي نلته من التعليم، فلم يعد يصح لي الدخول والخروج بحجة الدراسة..

يا إلهي كنت غاضبة، ثائرة، أردت كسر تلك القيود، تحرير نفسي من براثن تلك الأفكار البالية منذُ عقود، فقط ما كان يهدئ من روع ثورتي ويخمد بركان غضبي هو ذاك الخافق بين ضلوعي والتي تكمن سر سعادته في عادة من تلك العادات، فقد اتفق عمي مع والدي منذُ الصغر بأن ابن عمي لي وأنا له، وقد لاقى هذا الاتفاق استحسانا في نفسي، فمنذُ علمتُ بالأمر وبأن هذا القريب البعيد الذي يرتجف قلبي له حين أراه وهو لا يلقي بالاً لي البتة، مكتوباً باسمي، ملكٌ لي، شيءٌ يخصني، تشكلت حياتي من حينها على هذا الأساس، صار بطلاً لكل حكاياتي، أميراً لكل أحلامي، كان قبس الضوء الذي ينير عتمة أيامي، الزاوية المشرقة التي كلما أنظر إليها تتلون وحدتي، ويتبدل بؤسي أملاً، وحزني فرحاً، عوضتني تلك النظرات المسروقة إليه من نافذتي الصغيرة عن حرماني من دراستي التي أحب وأعشق، صارت تلك النظرات الخاطفة، ما أقتات عليه، ما يملأ ذاك الفراغ الشاسع الذي يحتويني ويحتل داخلي، صرت أحسب الأيام فقط انتظاراً لهذا اليوم الذي سيجمعنا سويا في مكانٌ واحد، فقد تقرر موعد زواجنا حين انتهائه من جامعته..

بعد مرور عامين ومع بداية العام الثالث جاءت إلي صديقتي الوحيدة التي تزورني بين الحين والآخر لتشيع لي أخبار عن علاقة تجمعه بفتاة من البلدة ترافقه للجامعة ذهاباً وإياباً، ويتقابلون كثيرا عند

البحيرة الكائنة بأطراف البلدة، صدمت، ذهلت، لم أصدقها أبداً، لن يفعل ذلك..... كيف يفعلها وهو لم ينظر لي يوماً، لا يعرف ملامحي أو كيف أبدو...!!!

في صباح العيد كنتُ أتأنق وأنتظره ليأتي برفقة عمي ليعايدونا، كان قدومه فرحتي وهو عيدي، كم تمنيت أن يرفع رأسه وينظر لي، أن يراني في أبهى حُلتي ويعلم أن كل هذا من أجله فقط، ثم يختطف مني عدة نظرات حتى تتلاقي اعيننا وتستكشف عيناه ملامحي فتعلق وتضيع بها ولا تقدر على العودة، لكنه لم يفعلها، لم يهديني تلك النظرات التي ترجيتها لسنوات لتظل حلم يقظتي ونومي، اعتقدت أنه خجلا أو ربما احترامٌ بالغ، فكيف عليّ أن أصدق الآن أنه يلتقي بأخرى، يتواعدا، ينظر لها، يتحدث إليها، يبتسم لعينيها، وتحتفظ ذاكرته بملامحها، أن تحصل هي على كل ما هولي ومن حقي أنا ..شعرتُ بنارٍ تكادُ تحرقُ كلَّ شيء، حقد أسود يجتاحُني، دوامةٌ من الغيرة الحمقاء تبتلعنِ..

طلبت من صديقتي أن أراها، أريد أن أعرف ما يكاد يميزها عني؟!

خرجت من المنزل بأعجوبة ورأيتها، تطلعت نحوها باستغراب، صغيرة الحجم، نحيلة الجسد، ملامحها أقل من العادية، تبدو كطفلة أو مراهقة، لا يوجد أي مقارنة بيني وبينها، أفوقها جمالاً آلاف المرات، ما الذي يعجبه بها من الأساس... !!!

أخذت أفكر لأيام ماذا عليّ أن أفعل؟ يجب أن أتصرف بذكاء حتى أنهي هذه العلاقة في مهدها، فهو لي أنا فقط، كتب باسمي منذُ الصغر، ولن أسمح لتلك التافهة بسرقته أبدا...كانت صديقتي تلك مادية لأبعد الحدود وربما كان هذا سبب صداقتها، لي فهي تستطيع استغلالي وقتما تشاء، لكن الواقع هو أنني أنا من كنتُ أعطيها كل شيء برغبتي وكأنني أشتري صداقتها، فلم تتيح لي عزلتي ومرافقتي لجدران غرفتي على إنشاء أي صداقات أخرى، فكانت خسارتها تعني لي حذف كلمة صداقة من قاموسي وعالمي بأكمله ...

اتفقت معها أن تحضر لي صورة واضحة لهم عندما يلتقوا مجدداً عند تلك البحيرة، ووعدتها بخاتم ذهبي مما أرتديهم، جحظت عينيها، تأكدت حينها أنها ستفعل المستحيل لتحضر لي تلك الصورة، وهذا ما حدث، لم يمر أسبوعاً واحداً إلا وأحضرت لي العديد من الصور واللقطات المختلفة لهم وهم جالسين على جذع شجرة نامية على أطراف البحيرة وأخرى وهو متكىء على غصن الشجرة ينظر نحوها مبتسماً بحب وهي جالسة تبادله النظرات والابتسامة، وأخرى يحتضن كفها بين يديه والكثير غيرهما.....

نعم رأيت كيف ينظر لها ؟ كيف تستقر عيناه على ملامحها ؟ كيف كان سعيداً معها وبها ؟؟ شعرت بيداً تمتد لتعتصر قلبي، بألم عظيم يحتل شمالي، سريعاً ما تحول لغضب أسود يجتاحني، برغبة شديدة في الانتقام، وكان سلاحي بين يدي تماماً....!!!

طلبت من صديقتي تلك أن ترسل لي هذه الصور من رقم غريب تبتاعه خصيصاً لهذه المهمة، ثم تتخلص منه، عكفت في غرفتي وتصنعت البكاء حين أتت أمي لتطمئن على حالي وحينما سألتني ما بي؟ اعترفتُ لها منهارة بأن صديقتي أخبرتني أن هناك فتاة سيئة خلق تحاول العبث مع خطيبي، لكنني لم أصدقها حتى أتتني هذه الصور اليوم على هاتفي ومؤكد أن تلك الفتاة هي من أرسلتهم لتفسد علاقتي به وتسرقه مني ومن عائلته...

استشاطت أمي غضباً حين اطلعت على الصور وركضت إلى زوجة عمي بهاتفي ليجدوا حلاً سريعاً لتلك الكارثة التي حلت على العائلة..

جلست في غرفتي وابتسامة ساخرة تزين ملامحي فقد كتبت للتو آخر سطر في هذه الحكاية، وفي حياة تلك الفتاة، لتتعلم الدرس جيداً وتعلم مع من تلاعبت، ولم يأتي الليل بعد وأتتني والدتي مبتسمة بثقة تزف لي البشرى وتسرد لي ما حدث وأنا أستمع إليها بتشفي، ذهب كل رجال العائلة لبيت الرجل وطردوهم هو وابنته شر طرده بعدما علم الجميع أفعال ابنته المنحلة، والرجل لا حول له ولا

قوة ..فقير غريب عن بلدتنا، أما عائلتنا هي من أكبر وأغنى العائلات في البلدة، فما كان منه إلا أن أخذ ابنته وفروا هاربين، ولم تتوقف سعادتي عند هذا الحد فقط، تقرر التعجيل بموعد زواجنا ولن ننتظر حتى ينهي دراسته...

عدة أشهر فقط وأقاموا لنا عرساً من سبعة ليالي لم تشهد مثله البلدة من قبل، لم يكن هناك حدا لوصف سعادتي، كنتُ أطير طيرا، لا تكاد الأرض تحملُني لا أصدق أن حلمي قد تحقق بالفعل، وها هو لي وأصبح يجمعنا مكانٌ واحد، لكن لم يمنع كل ذلك تلك الغصة التي احتلت قلبي حين التفت لي، كان قريبا جدا لكنه بعيداً... بعيداً جداً بعد السماء عن عالمي الوردي الذي أسبح فيه، لم يلاحظ روعة فستاني ولم ينبهر بحسني الذي أزاغ أعين النساء الليلة، مما جعل أمي تحصنني من أعينهم الحاسدة، لم تتراقص السعادة في عينيه عندما التقت أعيننا، كان يتطلع لي بملامح باردة، جامدة خاوية من أي حس أو شعور وكأنه جسدٌ آلي ينفذ ما يملى عليه من أوامر فقط، فاقداً الشعور بأي شيء، لم أحزن، بل اقنعت حالي بأنه لا يعرفني بعد وحينما يعتاد على وجودي بحياته سيتغير شعوره نحوي وبأنني أعلمُ تماماً كيف أجعله يحبني ويهيم بي..

مرت الأيام تليها الشهور فالسنوات ولم يتغير شيء، باءت كل حيلي بالفشل، لم يهبني قلبه كما تمنيت، ظل بعيداً، غريباً يعيش معي، جسدا بلا روح، جسداً خاوياً وروحٌ عالقة في فضاءٍ آخر فضائها هي تلك التي تملك مقاليد قلبه وتحتل عقله احتلالاً..

ذهبنا للإقامة في المدينة لضروريات عمله أو هذا ما كان يدعيه، لأكتشف بعد ذلك أن تلك هي المدينة التي تقيم فيها، وهو ما أتى هنا إلا ليرضي ضرورة قلبه الملحة في رؤيتها كلما اجتاحه الاشتياق لها وإن من البعيد علمت أيضاً أنه لم يترك شيء لم يعرفه عنها، أماكن عملها، مواعيد ذهابها وايابها من خلال تتبعه لصفحتها الشخصية على مواقع التواصل والتي كانت السبب الرئيسي والوحيد لتصفحه الإنترنت، رأيت بعيني ما أصبحت عليه، لم تكتفي بعملها كأستاذة جامعية بل حصلت على

الدكتوراة وشغلت منصب دكتورة جامعية، وصارت محاضرة في التنمية البشرية تحاضر في كافة مدن ومحافظات البلاد بخلاف تعيينها كرئيسة لجمعية من أبرز جمعيات الدفاع عن حقوق المرأة... أنظر إليها كيف هي أصبحت ولنفسي كيف أمست....

أنا من انتزعته منها بأسوأ الطرق وأعددته إنجازا عظيما أفتخر به، فأنا من حصلت عليه وليست هي، لتتضح لي الحقيقة يوماً بعد يوم بأنني لم أكن يوما من المنتصرين بل كنت أكبر خاسرة، لم أحصل إلا على شبح رجل، ظننته عالمي، رجل رغم فراقهم لم يفارقها ورغم حضوره معي كان غائباً لديها ..عاش معي ما عاش من سنوات غريباً بين أحضاني، مغترباً في منزلي، أهديته أروع طفلين لأملأ قلبه بالسعادة ليقابلني بفرحة ناقصة، بابتسامة مكسورة وضحكات بباطنها حزنٍ عميق

أعلمُ جيدا أنه لو يستطيع الركض إليها لفعلها، لكنه لن يتجرأ على فعلها يعلم أنها لن تغفر له ...

تراه خذلها، لم يدافع عن حبه، تركها لقمة سائغة في أفواه الجميع، كسرها حين توارى وجبن وترك عائلته يخرجونهم أذلاء مهانين بتلك الطريقة، سقط من نظرها وانتهى .

وحين يسقط الرجل من عين امرأة لا تكلف نفسها عناء النظر تحت أقدامها،والغريب في الأمر أنني لم أحزن كثيرا حين علمت كل تلك الحقائق لأنني سبق وقد علمت الحقيقة الأكثر وجعاً وايلاماً، علمتها منذ زمن بعد زواجنا بفترة قصيرة ،وهي أنني لم أحبه يوماً.....!!!

حين انطفأت مشاعري نحوه وأصبحت أراه زوجاً لا حبيباً، يحركني تجاهه الواجب وليس الرغبة، علمت حينها أنه لم يكن حباً حقيقياً، كان حبٌ مراهقة، هذا النوع من الحب الذي ينتهي حتى قبل أن يبدأ، لكنني أنا من تمسكت به ولم اسمح له بالانتهاء، فقد كان طوق نجاة تمسكت به نفسي حتى لا تموت قهراً حين حرموني من دراستي التي أحب، سجنوني بين أربعة جدران، فتشكلت حياتي من خلال نافذتي الصغيرة التي أضحت نافذتي على العالم ..قرروا عني من سأتزوج، رسموه لي مستقبل، فاتخذته أنا حاضراً، تلونت به حياتي وصار هوسي وبطلي الخارق الذي يحتفظ لي بكل أحلامي

الضائعة وسيردها لي ما أن يراني ونجتمع، لكن ما إن اجتمعنا، لم أعثر على أحلامي لديه بل عثرت على سرابٍ ممتد لآخر المدى، يتوسطه بقايا رجل يحمل لي خيباتٍ متتالية وآن لها أن تنتهي....

قررت الانفصال عنه... قرارا اتخذ مني سنوات طويلة لأصرح به، صارحته برغبتي في الانفصال عنه توقعت أن يعارض ولو قليلا من أجل الأبناء، لكن ما فاجأني موافقته السريعة وكأنه كان ينتظر ذلك منذ عقد، وكان فقط ينتظرني أن أطلبها بنفسي، انتهت المواجهة الأولى أسهل مما توقعت، أما المواجهة الثانية تحتاج لثقة وقوة كبيرة وهي مواجهة عائلتي وإخوتي الذين أرادوا عودتي للبلدة مجدداً، وهذا ما كان الموت أهون من حدوثه، فالمرأة المطلقة في بلدتنا كالمجرم السياسي تماماً تسجن دون اتهام أو محاكمة، وحين تموت تدفن دون أن يعلم عنها أحد.. واجهتهم وقاومتهم بضراوة، انتزعت حريتي من براثن عقولهم المتحجرة، عاودت دراستي من جديد من خلال الدراسة المنزلية، وساعدتني جارتي في الحصول على وظيفة مناسبة في روضة أطفال بالتغاضي عن مؤهلي الدراسي.. كم أحب التعليم خاصة لهؤلاء الأطفال، فكم هو شيءٌ عظيم أن تكون أنت المسؤول الأول في إنماء تلك العقول الصغيرة، وبناء أسس العلم والدين والأخلاق بها، وزرع بذرور المعرفة بداخلها، سأحاول وأبذل كل جهدي في دراستي لأتحصل على شهادة جامعية تؤهلني لأن أصبح معلمة حقيقية، كم أشعرُ بقيمتي وبذاتي، وبالسعادة لأني أعمل ما أحب وبالزهو والفخر بنفسي لسعيي وإصراري لإكمال دراستي وتحقيق حلمي، تحسنت نفسيتي كثيرا فتحسنت علاقتي مع أبنائي، رحلت تلك الأم العابسة العصبية المتوترة دوماً وحضرت الأم الباسمة السعيدة المتفهمة، من تستطيع احتوائهم ومصادقتهم.. لم يعد يهمني من تلك الحياة سوى أبنائي وعملي وطموحي، وأكتفي بذلك.. قد يعتقد البعض أن تلك الخطوة التي يسعون لها بتردد هي نهاية الحياة، لكنها قد تكون بداية لحياة أخرى سعيدة .....فقط لو يعلمون

*****

حب لآخر العمر

عشقٌ ولد منذ الطفولة قبل أن تدرك عقولنا الصغيرة ما كانت تعنيه تلك الكلمة، نشأنا سوياً وكبرنا سوياً ونمت داخلنا المشاعر كشجرة تشعبت جذورها داخل أوردتنا، وأثمرت فروعها عشقاً يملأ الكون من حولنا، تلك الشجرة هناك أعلى التلة تشهد على قصتنا وتشاركنا الحُلم الذي نبت صغيراً وصار ينمو حتى وصل عنان السماء، شهدت أحلام الطفولة وعنفوان المراهقة وطموحات الشباب ولم يتعدى طموحنا حين ذاك سوى أن نكون معا يجمعنا بيتٌ واحد، أنا لك وأنت لي، يظللنا الحب للأبد، طموحاتٌ مشروعة لا تخالف شرعاً ولا ديناً، لكن في بلادنا لم يتركوا لنا أي حقٌ مشروع، نزعوا عنا كل الحقوق، حتى حقنا في الحياة...

نزعوك مني ونزعوني منك، أخذوك عنوة وأمسكوك سلاح لتحارب عدواً تجهله في حربٍ صنعها الجهل ويقودها الجهلاء..دمروا بلادنا وأسكنونا الرعب بعد أن كنا آمنين مطمئنين، خطفوا شبابنا وأسكنوا الحزن داخل قلب كل أم، أخذوا قطعةٌ من قلبها، انتظرت طويلاً حتى أتيتني، شهورٌ مضنية وشوق قلب لم يعرف الراحة والسكون، ولم يغفو منذ رحلت عنه، قابلتني بجفاء ورحلت عني، لم ترد قلبي المشتاق الذي حلُم بهذا اللقاء ليالٍ طوال، وتعشم أن يختزن من حبك ما يكفيه ليتحمل الغياب.. لا أعلم ما قالوا لك عني ؟

هل قالوا لك تعيش سعيدة ولا تكترث لغيابك ؟

هل قالوا لك وجد قلبها شخصٌ غيرك فقد أجفاه البعد ؟

كاذبون لا تصدقهم، فوالله لم تعرف البسمة طريقاً لشفتاي منذ رحلت عني ولم يتذوق قلبي طعماً للراحة منذ غيابك، وحيداً شريداً ضائعاً يبحثُ عن أثرك في كل مكان كنت تخطوه، أو كان يجمعه بقلبك ... انتظرت وانتظرت .....ولم تعود، أجبرونا على الرحيل خوفاً على حياة من تبقى، سنواتٍ وسنوات أنتظر، لا أعلمُ عنك شيء، ولا يهديني لسبيلك أحد.... تزوجت لأقر قلب أمي المفطور

على حالي ، أنجبت صبياً أسميته باسمك.. ولا علمٌ لي كيف خُلق يشبهك وكأن القدر أراد أن يعوضني به عنك، وأنجبت فتاة أسميتها كما كنت تريد أن نطلق على ابتنا ..

سنواتٍ أخرى مرت، كبر ابن قلبي وابنة حُلمنا.. لم أكن أفقه شيء عن مواقع التواصل ولم يكن لي حساب باسمي، لكنني كنتُ أعبث بحساب زوجي ذات يوم لتصطدم عيني برؤيتك وقلبي بلقائك... بعد كل هذه السنوات وجدتك بين أصدقاء زوجي.. من كان ليصدق ألاعيب القدر.....! فتحت صفحتك بأصابع مرتجفة وقلبٌ يهدر، يكاد يهرُب من داخلي، ويخرج ليحتضن صورتك على الشاشة التي لم تتغير كثيرا.. فقط زارك بعض الشيب.. تنقلت بين منشوراتك التي تتحدث جميعها عن الفراق والوجع والحب الضائع مرفقة ببعض الأشعار، لم أكن أدري أنك سوف تصبح شاعراً ذات يوم.. أدمعت عيني، وانكمش قلبي خلف الضلوع، لا يتحمل ما أصابه من وجع الاشتياق، تلمست أصابعي صورتك وخرجت من داخلي تنهيدة قوية وكأن روحي تردد كم اشتقتلك، لأيام تسافر روحي داخل متصفحك ذهاباً وإياباً، حتى قررت ذات يوم أن أصنع حسابا خاص بي باسمي كاملاً وأرسل لك طلباً للصداقة لأرى رد فعلك كيف سيكون؟؟؟

هل ستشعر كما شعرت أنا ....؟

أم أن الأيام والحرب كانت كفيلة بأن تخرجني من روحك!

أو أن امرأةٌ أخرى قد أخذت مكاني داخلك؟

أرسلت إليك الطلب وانتظرت كل حواسي متحفزة لمعرفة رد فعلك؟

لم أنتظر طويلاً قبل أن تأتيني رسالةٌ منك..

"هل يمكن للحلم أن يصير واقعاً بين لحظة وأخرى بعد أن أنهكنا الشوق وهرب نحو السراب ليتخذه سبيلا"

غزت ملامحي ابتسامة حقيقية احتضنت دموع عيني المنهمرة بغزارة ، تنهد قلبي براحة لم يعرفها منذ عقود، رفرفت جوارحي بسعادة، نسيت كيف يكون طعمها، خشي قلبي من مغبة النسيان، من صدأ الذاكرة، خشي أن يكون عشقه راقداً تحت غبار الذكريات المتراكمة، أن يكون قد أبحر في هوة نسيانك وتحاول جاهداً انتشاله من بين أنقاض الزمن تزيل عنه غبار السنين لتسترجع جزءً مما كان تتذكرني به، لم يكن قلبي ليتحمل فاجعة نسيانك، تلعثمت أصابعي فوق الحروف، لا تدري على أي حرفٍ تسقط.. فكَتبت بتثاقل : كيف أنت.....؟لكن ما أراد قلبي أن يقوله هو "كيف حال قلبك في غيابي "أجبت بعد حين يبدو حالك كحالي كان، أرسلت كلمة واحدة "مشتاق"

كلمة واحدة كانت كفيلة بنبش قلبي حتى الأعماق، بإخراج أوجاعٍ دفنتها السنين، شعرت بأنين قلبي، ببركانٌ ثائر من الحنين يتدفق داخله، وطاقةٌ من الاشتياق تغمر كل حواسي، أردتُ احتضان تلك الشاشة أمامي، أن أنقل عبرها كل ما يعتمر بخلجاتي، لكانت حينها تحولت للحم ودم من وطأة مشاعري وصارت تهذي مشتاقة ..تحدثنا .....وتحدثنا لأيام، لأسابيع، لشهور ولم يكف الحديث قط ولم ينتهي، فما اختزناه داخلنا لسنوات لا يمكن أن ينفذ بسهولةن ولا اعتقده سينفذ أبداً.. لم نعدها خيانة فما بيننا أرقى من أن يطلق عليه هذا المسمى.. ما يجمعنا ليس حباً عادياً بل كان أسمى من تلك العلاقة التي تجمع بين العاشقين.. كان اندماجٌ روحاني يؤلف بين روحينا برباطٍ من عشقٌ سامي لا تشوبه أي رغباتٌ أو شهوات.. اتفقنا ألا نفترق ثانية، أن ننىء بأنفسنا من طعنات الفراق وننزه روحينا من وجع الاشتياق ونؤسس عالماً خاصاً بنا يجمع بين قلبينا في اندماجٍ أبدي بعد السماء عن عالمنا.. أخبرني أنه أسماها (ابنته) باسمي مثلما أسميت ابني باسمه ..

وإن لم نستطع تحقيقه نحن فلنفعله لأبنائنا، نؤلف بين قلوبهم، ونجمع بينهم، ونعيش قصتنا من خلالهم، ونستمد سعادتنا من سعادتهم حين يكون الحب حقيقي لو تآمر العالم أجمعه عليه لا يتزحزح قيد أنملة من القلب، يظل عالقاً بالقلب ما حيا محاوطاً له، محافظاً عليه لحين اللقاء مجدداً

خيانة مشروعة

لم يكن حباً من النظرة الأولى بل كانت حرباً ضارية، تشاجرنا وتراشقنا بالكلمات، أردت طعنه في قلبه مباشرة، القضاء عليه تماما لأطفئ نار قلبي من سخريته العلنية مني... أتاني في اليوم التالي معتذراً بعدما أقسمت أن أفقأ له عينيه حين أراه مجدداً، ذاب كل كرهي وحقدي المزيف أمام لطافته وابتسامة عينيه، وخلال أيام صرت عاشقة لهذا القلب الذي أردت طعنه ذات يوم..

تزوجنا سريعاً ليعشش الحب، دارنا وتغلف السعادة أيامنا، ويرزقنا الله بثمرات هذا الحب، ثلاثة أطفال يشبهون الملائكة، لكن وكأنه قد آن أوان تلك السعادة حتى تنتهي، اجتاحت الثورة البلاد وعمت الفوضى من عنف وسرقة وخطف ونهب وسفك دماء وإحراق وتخريب واغتيالات، وباءت الأمور من سيء إلى أسوأ، وعلقنا بحرب دموية بين الثوار والنظام، ظهرت عشرات الجماعات بأسماء مختلفة، وأضحت حرب حقيقية دائرة داخل ربوعنا، وبدأ الموت يلاحقنا من شتى الجهات، كل يوم أقارب ومعارف وجيران يلقون حتفهم، حاربنا للبقاء وتحملنا ما لا يحتمله بشر، لكن الأحوال كل يوم تؤول نحو الأسوء، ولم يعد هناك بداً من البقاء سوى انتظاراً للموت المحتم، لذا اتخذنا قرارا أصعب من الموت نفسه .....قررنا الرحيل..رحلنا مع الراحلين خاليين الوفاض، وسكنا مخيمات اللاجئين لا نملك من أمرنا شيئا، أسوأ أيام عرفناها بعمرنا، نتجرع مرارة الغربة وذل الاحتياج بعدما كنا أعزاء، سعداء، آمنين، تلاشت كل تلك المصطلحات، تاهت وسط زحام الغربة، داخل الوطن وخارجه وحلت محلها الرغبة في الحياة فقط، وبأي شكلٍ كان، ما كان يعنيني هم أبنائي، كان هاجسي خسارتهم، لم أكن لأستطيع الحياة بدونهم، حين كانت تراودني ذكرى من قُتلوا ومن خسروا أبنائهم وأطفالهم أسجد لله شكراً بأن حفظ لي أبنائي وما حرمني من احتضانهم وتنشق رائحتهم التي تعينني على الحياة...

كانت تسوء أحوالنا كل يوم أكثر من سابقه، لا نستطيع توفير أقل احتياجات أبناؤنا، وما باليد حيلة، حتى تعرفت ذات يوم على امرأة من سكان البلاد التي كنا نقيم بها، أخبرتها ما نعانيه، عرضت عليّ المساعدة، رفضت في البداية امتثالا لكرامتي لكنها ألحت، فخضعت في النهاية من أجل عائلتي، عرفتها على زوجي وأبنائي وشبت بيننا صداقة قوية، وبفضلها تحسنت أوضاعنا كثيرا ولم نعد نحتاج شيئا، لكن ما آرقني وبدأ يبث الخوف في قلبي تلك النظرات التي تتبادلها هي وزوجي ولم تكن وليدة اللحظة كنت ألاحظها منذ زمن، أشك أحيانا، وأكذب نفسي أحيانا أخرى..لكن تعلقها الغير طبيعي بنا، وجودها المستمر، مساعداتها التي تخطت حدود المعقول، كلها أشياء تثير الشبهات، وتدب القلق في نفسي.. راودتني نفسي بمراقبته ومعرفة أين يمضي وقته بعيداً عنا.. خاصةحينما يغيب حتى انتصاف الليل، وعندما أسأله عن مكانه كان يخبرني بأنه يمضي وقته برفقة بعضٌ من الأصدقاء، تعرف عليهم في المخيم..

كنت أشفق عليه ولا أقسى عليه بأسئلتي وأضيق عليه الخناق، فيكفي ضيق الزمن والظروف وما آلت إليه أحوالنا.. أما الآن فتجتاحني رغبة عارمة في معرفة هؤلاء الأصدقاء الذين يدعيهم ويقضي معهم جل وقته ليلاً..

قال لي بعض الأسماء ذات ليلة ليتجنب شجاري، حفظتهم عن ظهر قلب، وذهبت إليهم وسألتهم عنه بشكل غير مباشر حتى لا أسيء لصورته أمامهم ، لكن ما هالني هو أنهم ليسوا أصدقاءه مثلما ادعى، بل مجرد معرفة سطحية لا تخلو من السلام وبعض كلمات المجاملة لا أكثر ولا أقل، إن لم يكن يقضي وقته مع هؤلاء مع من إذا ....؟

واجهته بما علمت وحاصرته في الزاوية حتى انتزعت منه الاعتراف، أردت الحقيقة ونبشت عنها بكل ما أوتيت من عزم، ويا ليتني ما فعلت، ليتني صمت وتجاهلت الإشارات والعلامات التي

تقودني نحو عذابٍ لا نهاية له، اعترف بعلاقته بها منذُ شهورٍ طوال، تلك التي اعتقدت أن القدر أهداها لنا لتخفف من وطأة المعاناة، التي اعتقدتها تعويضا عما خسرت من أصدقاء ورفاق وإخوة.. اتضح أنها لم تكن سوى استكمالا لطعنات القدر ليزيد من عذابي ومن نزيف قلبي ومن معاناتي.. أمرته أن يتركها.. أن يبتعد عنها.. أجابني ساخرا:

هل اعتقدتِ مساعدتها لنا من أجل صداقتك أم من أجل إشفاقها على حالنا ؟؟

هي تفعل ذلك فقط من أجلي أنا، وأنا أفعل ذلك من أجلكم...

إنها خيانة مشروعة.....

صرخت روحي بأقصى ما تحمله من أوجاع رافضة لواقع ظلمها بكل ما يحمله الظلم من معنى : لا أريد مساعدتها، اتركها في الحال، لكنه رفض الانصياع لمطلبي، هددته بتركه، بالرحيل عنه إن لم يمتثل لطلبي، لكنني كنت أعلم من قبله أنه مجرد تهديد واهي ليس له أصل من الصحة، فكيف سأتركه وأين سأذهب !

وكيف سأوفر لأبنائي أقل ما يريدون...صمتٌ مخزي واستسلام قبيح لحياة ظالمة لم تعرف للعدل سبيلا..

أياما متشابهة لا يفرق بينها شيء، نهارا باهتا رتيبا منزوع البهجة، معدوم الألوان يلحقه ليلاً أسود تتأجج فيه نيران سعيرة تشتعل بصدري، تلتهم أحشائي لتقضي على المتبقي من الأخضر واليابس..

أيامٌ تمر بمرٌ ومر والخيانة وخزاتٍ تؤرق سلام ليلي، وأشواكٌ تجعلني أتلوى في مضجعي كل ليلة حتى عافته نفسي، أصبحت رائحته تثيرغثياني، ولمسته تحرق جلدي وصوته يصيبني بالصمم، حتى اعتدت .....نعم اعتدت، فعندما يداهمنا الحزن ويصبح رفيقاً لنا لا يفارقنا ولا نفارقه لأيام، لأسابيع، لشهور نعتاد عليه ويُمسي جزء من حياتنا..

وعدني أن يتركها ما أن يجد عملا وتتحسن أوضاعنا، وظل يخلف وعدا بعد وعد، وجد عملا ولم يتركها ، تحسنت أوضاعنا ولم يتركها..

كذبٌ يليه كذب وكأنه استساغ طعم الخيانة فصارت في فمه شهداً وتركت في فمي علقم.. حتى تمت السيطرة على بعضٌ من قُرانا.. وجاءت العودة.....

وشقت البسمة طريقاً لوجهي بعد أن فارقته لسنوات، وبحثت السعادة عن ممراً ضيقاً تعبر منه نحو القلب الوعر بالأحزان، وسعد الجميع بالعودة إلاهو، كان الحزن بادي على ملامحه وكأنه لم يعد يريد وطنه ، اتخذ من عشيقته وطنا له..

عدنا أدراجنا لوطننا الحبيب، لأرضنا الطيبة وإن أمست خاويةٌ على عروشها فهي أحبُ إلينا من الدنيا و ما عليها، يكفي ما شاهدناه منذ تركناها، تشتتاً وهواناً، قبلنا ترابها الحبيب، وتعطرنا برائحته، عمرنا منازلنا التي ظلت شامخة تنتظرنا لتحاوطنا بدفئها، عادت أجسادنا ذاتها إليها لكن القلب لم يعد هو ذاته النقي البريء، أضحى متلونا بالشقاء، متشبعا بالحزن واللوعة، صارت حياتنا كمأساة، لم يعد الشجار يفارق دارنا وكأنه يلومُني على العودة أو يمنُ علينا بوجوده معنا، أو ربنا يعاقبنا على تركه لها والبقاء معنا.. كذب حين قال إنه يرافقها من أجل المال والمساعدات، لقد كان ربما عاشقاً لها، سعيدا بجوارها، وأصبح نادما لأنه تركها من أجلنا، طالبته بالعودة إليها إن أراد، لكنه كان واضحاً وصريحا حين قال لي أنه سيبقى فقط من أجل الأبناء، لم يقل من أجلكم، قال من أجل الأبناء.. لم أحزن كثيرا فلم يعد هناك محلا للحزن في هذا القلب الضعيف..

أعيش الآن على أمل أن يعود لي مثلما عاد الوطن بعد أن كنت قد فقدت الأمل في عودته..حتى وإن عاد خاويا سأحاول جاهدة ترميم تلك العلاقة من أجل الأبناء ومن أجلي.....

*****

فوبيا الحب

حين جاءت نحوي ونظرت في عمق عيني وقالت: (أحبك)

بكل جرأة ووقاحة غضبت حينها، كيف لأنثى أن تعترف بحبها لرجل وهي من أروع شيمها الحياء!! كيف تأتيني والمفترض أن أذهب أنا إليها مصارحا إياها بحبي ..

لقد أحببتها منذ اللحظة الأولى، منذ النظرة الأولى كنت أتعمد المرور من أمامها، اصطناع أي موقف لأقترب منها، لتهديني بعضاً من نظراتها وابتسامتها ..

أحببتها بصدق، بل عشقتها، كنت أنتظر يوماً أن أجمع شتات شجاعتي وأتحدث إليها وأعترف لها بكل ما أحتفظ به داخل قلبي، حتى أتتني هي، فاجأتني، صدمتني باعترافها، لكن رغم غضبي وثورتي من فعلتها لا أنكر تلك السعادة الخفية التي تناثرت حول قلبي وزادت من دقاته ..

لم أتحدث البتة، كانت هي من تقود ضفة الحوار وأنا فقط متفرج يحمل داخله كمٌ من مشاعر متضاربة...كانت تسألني وتجيبني في ذات الوقت قالت لي أعلم أنك تتساءل لم أتيت أنا إليك

لأنني ببساطة تعلمت أن حياتنا واحدة ولن تتكرر، فإن أردنا شيء يجب أن نحصل عليه لا أن نظل نحلم به على أمل تحقيقه ذات يوم، وقد لا يأتي هذا اليوم، وخاصة في الحب، فعندما نحب لا يجب أن نخفي حبنا حتى لا نندم فيما بعد ونتهم حينها أنفسنا أننا وبأيدينا ضيعنا على قلوبنا فرصة اقتناص السعادة، أعلم جيداً أنك تحبني كثيرا وتبادلني نفس المشاعر وأكثر.. وإن انتظرتك حتى تأتيني ما كنت لتأتي أبدا، كنت استطعت حينها وبكل سهولة الرحيل عنها، التنحي عن طريق العشق الذي تدعوني إليه، لكن رغماً عني حبوت خلفها وخلف مشاعري ..كان كلما مر يوم يتضح لي أكثر من سابقه.. كم نحن مختلفين كالسالب والموجب متضادين، ولا أي قاسم مشترك بيننا سوى الحب فقط الحب...

كانت كالفراشة تطير بألوانها الزاهية لتنثر الحب والفرح على كل من حولها، لامعة، براقة يعرفها الجميع، ويحترمها الجميع، لطيفة، خفيفة ظل، قوية ثائرة، كانت تنظم وقفات احتجاجية وتدعوا الجميع لها وتقودهم لمعارضة كل القرارات التي ترفضها، كنت أرفض كل تصرفاتها ولا يروق لي أفعالها، فأنا كنت هادئاً، خجولاً، منطوي لا يستشعر وجودي أحد، ولا أفضل الاختلاط بالجميع إلا بعدما ارتبطت بها، كنت أتواجد على استحياء..تعجب الجميع من تلك العلاقة أسموها بالغريبة!!عندما أنهينا دراستنا استطاعت هي العثور على عمل سريعاً بفضل تقديرها الرفيع، وشخصيتها القوية القيادية ساعدتها في الحصول على الوظيفة من أول مقابلة عمل لها

ورغم رفضي لعملها وطلبي منها عدم التقدم لأي وظيفة إلا أنها رفضت مطلبي تماما، وفعلت ما تريده، وتحدتني قائلة: إنها لن تسمح لي ان أنزع عنها حريتها، شخصيتها، كيانها، مستقبلها وطموحها الكبير الذي تسعى لتحقيقه، استأت كثيرا من تصرفها، خاصة أنني لم أجد عملا بتلك السهولة مثلها، بل مكثت دون عمل ما يقرب من العام، حتى أقاربي في شركة جيدة وعملت بها، وبعدما حصلت على العمل آن أوان الخطوة التالية وهي التقدم لخطبتها...

لم يعد هناك ما يمنعني، وفي هذه الأثناء كانت أمي تبحث لي عن عروس ودون علمي دبرت لي موعدا مع فتاة ابنة أحد معارفنا، أثناء تواجدنا في عرس فتاةٌ تصغرني بعامين تعليمها متوسط، هادئة، خجولة لا تتحدث كثيرا..لم تنظر تجاهي إلا مرة واحدة فقط..فهمت الأمر من الوهلة الأولى، لم أتحدث كثيرا ولم أهتم رغم أن صفات البنت أعجبتني كثيرا..

بعد عدة أيام مرض والد الفتاة، صديق أبي، ذهبنا لزيارته، وأثناء الزيارة طلبت مني أمي مرافقة الفتاة بعد أن استأذنت والدتها لأقوم بإيصالها للمنزل لإحضار بعض الأغراض..ذهبت معها مبتسما وكادت الفتاة ترفض الذهاب لولا والدتها التي أظن أنها كانت على علم بتدبير أمي، أقنعتها بعد

عناء بالذهاب معي، طوال الطريق رأيت كم هي متوترة، خجلة من مرافقتي إياها، حاولت التحدث إليها، كانت تجيبني بكلمة أو كلمتين، ولم ترفع عينها نحوي..

لا أعلم لما حينها أوجعني قلبي كثيرا ؟! وتمنيت أن أرى حبيبتي متجسدة في تلك الفتاة البريئة، الهادئة، الخجولة، التي تحمل كل الصفات التي تمنيتها يوماً، عندما تحدثت أمي معي بشأن خطبتها لاقى الأمر استحسانا في نفسي، فتلك الفتاة تمتلك كل ما أريده، أستطيع تأسيس حياة هادئة، مستقرة معها دون مشاكل أو صراعات ، لن تعمل ولن يشغلها عني شيء، ستجيد الاهتمام بأطفالنا المستقبليين.. لن يشتتوا هنا وهناك لأن السيدة مشغولة عن ابنائها بعملها..

قررت حينها رغم تمرد قلبي العنيف أنني سأتزوج تلك الفتاة التي اختارها عقلي بكل اقتناع.. وأعطيته مسكنا، ثم أوهمته بأن ما أقوم به هو الصواب، وبأنه سوف ينسى كل ما كان، وستصبح مجرد ذكرى ما أن يسير في طريقه الآخر الذي اختاره باقتناع.. لم يعد يتبقى إلا أصعب اختبار، مواجهتها .....

إخبارها بعدم رغبتي في الاستمرار، و قطع علاقتي بها بكل بساطة، قابلتها بعد انتهاء عملها، لم تعطيني فرصة التحدث كعادتها، ولم تكف عن سرد أحداث يومها بحماس وهي تلتهم شطيرتها برفقة كوب عصير، تمزح حول كل شيء وتلقي النكات بسعادة صامتا لا أقوى على النطق فقط ابتسم لها، أتلاعب بفنجان قهوتي الذي لم أتذوقه الى الآن..ولا أعلم كيف سأقولها لها؟؟ كيف سأهدم تلك السعادة وأحول تلك البسمةالجميلة لدموع، وأكسر هذا القلب الممتلئ بحبي؟؟

استجمعت شجاعتي بأعجوبة، وفعلتها دفعة واحدة حتى لا أتراجع..

قلت لها : سأتزوج من أخرى..

ابتلعت ما بفمها بصعوبة، وضعت ما تبقى من شطيرتها وشربت القليل من كأس العصير، ثم رفعت وجهها في مقابلتي، نظرت لعيني بثبات وابتسمت ابتسامة جميلة وقالت بكل هدوء :

بالتوفيق ... أتمنى لك السعادة ....

ثم استقامت، حملت حقيبتها ورحلت، ومازالت الابتسامة تداعب وجنتيها، رحلت وتركتني جالسا في مكاني أتطلع لها وهي راحلة بكبرياء، مذهولا من رد فعلها الذي لم أتوقعه.. توقعت صدمة تزلزل محيطها، حزنٌ تكتسي به ملامحها، دمعةٌ هاربة على استحياء من إحدى عينيها تزيلها أصابعها بكبرياء، غضبٌ يسري بأوردتها، تساؤل تصرخ به نظراتها قبل شفتيها...لكن لم يحدث أيٌّ من هذا .....

فقط تركتني ورحلت، تمنت لي التوفيق والسعادة وتركت لي هذا الكرسي الفارغ أمامي ينظر لي بسخرية ويحدثني بشماتة :

أردتها أن تتألم .. أنت من سيتألم للأبد

تزوجت من اخترتها بكامل قواي العقلية..اتضح لي أن الحصول على السعادة أحياناً يتطلب بعض الجنون، وأن العقل والمنطق ليس دائماً على صواب..حياة باردة، جامدة، جافة، روتينية لأبعد الحدود، زوجتي كما هي لم تتغير، كما اخترتها تماما، هادئة، خجلة، صامتة، مطيعة، لم أفقه أنه ليس كل ما يريده المرء هو مفتاح سعادته فقد تتحقق سعادته بأشياء أخرى مغايرة تماماً، لم أعتقد يوماً..

نعم كانت سعادته مع تلك المجنونة، الجريئة، الثرثارة، التي أجادت النقش على جدران قلبه بحبراً غير قابل للإزالة.. تلك الخبيرة بدواخله التي كانت تجيد إخراجه من أي حزن ينتابه وأي كبوة يمر بها، تشعل الأجواء حوله بهجة، حيوية وسعادة، تلك المشاكسة المتمردة العنيدة التي لا تجيد قول نعم، معارضة ومناقشة ومبررة ودوماً تكون على حق..ما جعلني أختنق من تلك الطاعة العمياء لزوجتي، تمنيت يوماً أن تعترض..أن تقول لا، أصابني استسلامها بالغثيان رغم أن هذا ما كنت أصبو إليه، وهذا ما تزوجتها لأجله...

مرت السنين جميعها متشابهة، لا أذكر من تفاصيلها شيء سوى تلك الغصة بحلقي التي لا تفارقني أبدا، وهذا الوجع بأيسري الذي لا يسكنه أي دواء، وتلك الذكريات التي ترافقني أينما كنت،

وتعينني على المضي بحياتي، لسنوات أمنع نفسي من البحث عنها عبر شبكة التواصل حتى أتى يوما لم أستطع منع نفسي فيه، كاد الاشتياق والفضول أن يفتك بي.. بحثت عنها لتظهر لي سريعاً دون عناء، اكتشفت كيف أصبحت شخصية مرموقة يتابعها الآلاف، مدربة للكثير من المجموعات، تعطي محاضرات بجميع أنحاء البلاد في إدارة الأعمال، حققت نجاحا باهرا وهي تبدو كما هي، بل ازدادت إشراقا، تلك الابتسامة التي تدغدغ قلبي، لا تفارقها في جميع اللقطات ...

وجدت لها صورة مع زوجها، تحتفل بعيد مولده، رأيت كيف ينظر لهابعشق وتبادله النظرة بسعادة، وجدت من يقدرها ويقف بجوارها ويساعدها للصعود نحو القمة، وكأن الله أراد لها الأفضل حين تركتها، رأيت صورتها مع ولديها تحتفل بنجاحهم وتفوقهم المدرسي والرياضي..يا الله أتذكر كيف كنت أفكر في عملها وأحاول إقصائها منه حتى لا يؤثر على أبنائنا ويكون السبب في فشلهم..

ها هي ناجحة في عملها وأبنائها يجارونها التفوق..

أما أبنائي بالكاد يحصلون على علامات النجاح بالرغم أن والدتهم لا تعمل..

كم كنتُ ساذجا حين اعتقدت أن عمل المرأة يؤثر بالسلب على زوجها وأبنائها، بل شخصية المرأة سواء كانت عاملة أم لا هي من تتحكم في استقرار وبناء المنزل أو هدمه، وها أنا ككل عام آتي في هذا اليوم، في ذات الساعة لتلك الطاولة التي شهدت رحيلها عني وبرغبتي أنا، لأقيم مراسم العزاء لقلبي الذي قتلته بيدي، ليزيد من شدة أوجاعي، ذاك الكرسي الذي لا يكف عن سخريته، وهو يردد بشماته :

ألم أقل لك ستتألم إلى الأبد.....

تمت بحمد الله

*****

الفهرس

إهداء ٥

مقدمة ٦

كيد النساء ٧

حورية من جهنم ١٢

أشرف خائنة ٣٤

هل أنا خائن ٤٥

ليلة زفاف ٥٤

لستُ عانس.. .... ٧٠

لأنني أحببتك ٨٤

أوان الورد ٩٨

عشقٌ من طرف واحد ١٠٧

بعد النهاية هناك حياة ١١٧

حب لآخر العمر ١٢٣

خيانة مشروعة ١٢٦

فوبيا الحب ١٣٠

الفهرس ١٣٥

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع